عبد العزيز جاويش

الأديب والصحفي والمصلح الاجتماعي

حسن الشيخة

الكتاب: عبد العزيز جاويش .. الأديب والصحفي والمصلح الاجتماعي

الكاتب: حسن الشيخة

الطبعة: **2018**

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الشيخة ، حسن

عبد العزيز جاويش .. الأديب والصحفي والمصلح الاجتماعي / حسن الشيخة – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

118 ص، **18** سم.

الترقيم الدولى: **1 – 630 – 446– 977– 978**

أ – العنوان رقم الإيداع : **25724 / 2018**

عبد العزيز جاويش





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أكتب الآن عن شخصية كريمة، أدرك صاحبها النسيان، وكأن لم يغن بالأمس، وما أكثر ما ننسى ما هو واجب الذكر، وما أكثر ما نغفل من لا يستحقون التغافل والتناسي. الشيخ عبد العزيز جاويش قدره قبلي من هم في الصف الأول من وزن أقدار الرجال،

أمثال السادة محمد فريد، وطه حسين، وعبد الرحمن الرافعي، ولكنها تقديرات وجيزة، قيلت في مناسبات تأليفية، ثم طويت في هذه التأليفات، دون أن نجد من أعطى هذا الرجل حقه من ترجمة مفصلة، عقيدتى أنها لو كتبت بالدقة التي أحاولها– لنفعت في كل آفاقها – جيلنا الناشيء في ثورتنا الموفقة، التي من أكبر أهدافها تكوين بناء قومي صالح، على أقوى أساس، وتهيئة أرض طيبة لأفضل غراس. أما ما قدره به السادة الذين أسلفت أسماءهم فإنني أذكره بترتيبه الزمني.

١– كان الزعيم محمد فريد لا يفتأ بذكر الشيخ بما هو أهل له في كل مناسبة، ومن ذلك قوله في أحد اجتماعات الجمعية الوطنية للحزب الوطني «١٠ يناير سنة ١٩١٠»:

«.. رفعت الدعوى على الشيخ عبد العزيز جاويش بسبب مقالة «ذكرى دنشواي» فحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر.. ودخل السجن محترما، وخرج أكثر احتراما، وأعلى مقاما مما دخله، وقد برهنت الأمة على إكرامها له، بأن قدمت له وساما.. في حفلة كبرى».

٢- تحدث مؤرخ قوميتنا الكبير الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عن استخلاف الشيخ الزعيم مصطفى كامل بعد موته في أرفع شأن من شئون هذا الزعيم، هو اختيار الشيخ رئيسا لتحرير جريدة اللواء- قال: «في منتصف سنة ١٩٠٨- اختار الفقيد «محمد فريد» لرياسة تحرير اللواء المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش، وكان قد تعرف به في أول مرة في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، وعرفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية، فلما رأى «محمد فريد» أن اللواء في حاجة إلى رئيس تحرير كفء لهذه المهمة عرضها على الشيخ عبد العزيز جاويش، وكان يومئذ مفتشا بوزارة المعارف، فقبلها..».

وقال الدكتور طه حسين- هو ومن معه - في كتابه «فصول مختارة من التاريخ»: «وكان من زعماء هذه الفترة «فترة ما بين ثورة أحمد عرابي وثورة سنة ١٩١٩، محمد عبده، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وعبد العزيز جاويش».

هذه التقديرات الإجمالية من ثلاثة الرجال الأفاضل تعطينا فكرة واضحة عن منزلة الشيخ، وعن أنه من الزعماء المظلومين في ذكرياتهم،

وفي الترجمة لهم، وقد أرضيت ضميري بأن اخترته مادة لكتابي هذا، وقد كان أمامي كثيرون، أترجم لهم وأكتب عنهم على طريقتي، «ولكل شيخ طريقة» كما يقولون، ولكن ترجمة هذا الشيخ الجليل تشبثت بخاطري، فلم أجد في الكلام عنها بديلا. لقد أغفل شأن الشيخ حتى في الكتب المدرسية الأدبية، التي وضعت للتلاميذ، فلم يذكر فيها مثلما ذكر الشيخ علي الليثي، هو ومن هم من مستواه في الأدب.كما لم يترجم له في التراجم الكبريات، مثلما وضع الدكتور أحمد أمين من تراجم المصلحين، ومثلما كتب الدكتور هيكل في تراجم شرقية وغربية.

كتبت عن الشيخ مقالات متتابعة في جريدة «الشعب» لما كنت أكتب بها أدبياتي، وهذه الترجمة التي أكتبها الآن هي تنسيق لهذه المقالات بزيادات كثيرة عليها تناسب كتابا – أو كتيبا – يترجم عن حياة الشيخ الجليل.. والآن أبدأ، وأرجو الله التوفيق.

الشيخ في عصره

شارك الشيخ في كل طيبات عصره، فإذا تحدثت عن أدب ذلك العصر وجدته في مقدمة أدبائه، وإذا تحدثت عن العلم والعلماء رأيته في الذروة والسنام، وإذا تحدثت عن التربية والتعليم ألفيته المصلح الكبير،

وإذا ذكرت المضحين في سبيل الوطنية بأعز ما يملكون وجدته قد ضحى بمنصبه الكبير في الحكومة، وإذا تحدثت عن الإرشاد الاجتماعي لوجدته من ذوي الآراء الناضجة فيه، وإذا تحدثت عن المضطهدين في أوطانهم، المغتربين عنها لوجدته – هو وزعيم حزبه محمد فريد – أوضح عنوان لهذا الاضطهاد.

والخلاصة أن الشيخ كان عاملا مشتركا في كل أمجاد عصره، وطيبات وقته، وقد جرت عادة المترجمين أن يتحدثوا – مقدما– عن عصور من يترجمون لهم، ملبين بحالات العصر كله في الناحية التي مر فيها المترجم له، ليقوا ضوءًا هو ضوء الافتتاح على الشخصيات التي يتحدثون عنها.

هذه هي العادة التي أعدها عادة طيبة، ولكن ماذا أصنع والشيخ جاويش قد ضرب في كل حالات عصره بسهم صائب، فكيف أتحدث عن عصر هو فيه المعلم والمربي، وهو فيه العالم المثقف، وهو فيه المصلح

الاجتماعي، وهو فيه الأديب المصفي، وهو فيه الكاتب السياسي الثائر، وهو فيه المسجون المضطهد الذي أبعد عن بلاده أحد عشر عاما، وهو فيه المصلح للتعليم بعد عودته– بعد أن وكل إليه في آخر مراحل حياته إصلاح التعليم الأولي وهو أساس محو الأمية.

إنني لو أردت الحديث عن عصر الشيخ بالنسبة لمراحل الشيخ كلها التي تحدد لي آفاق القول– لو أردت ذلك لتحدثت عن عصره في التعليم والتربية، وفي العلم والثقافة، وفي الأدب والأدباء، وفي السياسة والسياسيين وفي اضطهاد الأحرار وإبعادهم عن بلادهم، وفي الإصلاح والمصلحين. فهل هذا مقبول شكلا وموضوعا»؟

سأتحدث عن الشيخ في كل اتجاهاته في مواضعها، بأن أذكر إجمالا حالة عصره عند الكلام على كل مرحلة من مراحل حياته، وبهذا أنجو بنفسي من عبث القول الذي أقع فيه حتما لو أنني جعلت مقدمة قولي – كاملا شاملا لكل حالات العصر التي اشترك فيها الشيخ، إن ذلك لو وقع لا يكون «سلطة علمية» كسلطة الدكتور أحمد زكي، وإنما يكون «سلطة» لا تؤكل.

الآن أرتب – حسب رأيي– مراحل ترجمة الشيخ، محاولا الإلمام بها على تشعبها، وعلى تعدد آفاقها، وعلى بعد ما بينها من أسباب ودوافع، ولولا أن دوافعي النفسية وقفت عند ترجمة الشيخ ثم لم تتحول، لاخترت شخصية غيرها، تكون حياتها إما في اتجاه واحد، وإما في اتجاهات متقاربة،

لا يبتعد بعضها عن بعض ابتعادًا كبيرًا، كما هو الواقع في حياة شيخنا الجليل.

أما سبيلي في ذلك فهو أن أجمع أجزاء كل أصل من أصول ترجمته بعضها إلى بعض، دون أن أتقيد بالفواصل الزمنية التي وقفت كثيرا بين هذه الأجزاء لكثير من أصول حياة شيخنا الكبير.

أخلاق الشيخ

لعل من الخير- في رأيي- أن أبدأ ترجمة الشيخ بالتحدث عن أخلاقه، ليعرف المطلع ما هي الشخصية الخلقية التي أكتب ترجمة صاحبها، ليزداد معي علما بأن الشيخ في تكوينه الخلقي من أندر الشخصيات الفاضلة، ومن أظهر من خدموا الإنسانية بدوافع غرائزهم وسجاياهم.

يعرف علماء النفس بأنه حالة للنفس تصدر عنها الأعمال والأقوال بلا روية ولا تكلف، أما عدم التكلف في الأعمال والأقوال فواضح، وأما عدم الروية فالمقصود به أن صاحب الخلق فواضح، وأما عدم الروية فالمقصود به أن صاحب الخلق – خيرا كان أم شرا – إذا رأى محتاجا فإنه لا يتردد في أن يعطيه أو لا يعطيه، إنه يعطيه، بلا مهل إذا كان قادرا على الإعطاء. وكذلك البخيل، إنه مهما رأى من صور الاحتياجات والضرورات والفقر، فلا يجد دافعا يدفعه إلى تغيير خلق البخل فيه، بل إن طلب المحتاج منه إحسانا ليحملنه من فوره على رد السائل خائبا.

***

تعرَّفت حوالي سنة ١٩٢٥بصاحب شخصية كريمة، هو الدكتور أحمد فؤاد الطبيب المعروف، وكان قد فر وهو طالب بكلية الطب فيمن فروا من مصر إلى أوروبا من رجال الحزب الوطني لما اشتد الإيذاء بهذا

الحزب بعدما يسمونه «سياسة الوفاق» بين الخديوي عباس وبين الإنجليز، وقد أتم الرجل تعليمه الطبي بألمانيا، ثم انتقل إلى تركيا فاختارته حكومته «وقتئذ» مديرا للأمن العام لما كان له من مواهب عقلية نادرة المثال.

حدثني هذا الرجل عن أخلاق المصريين الذين هاجروا إلى أوروبا، ومنهم الشيخ عبد العزيز جاويش، فقد اتصل بهم جميعا في تركيا اتصالا عمليا وثيق العرى، فلم أسمع منه ثناءً مثلما سمعته عن الشيخ جاويش، ونبل أخلاقه، صدق في كل أعماله وأقواله ولو بلغ به إلى حد الضرر، وصراحة وجرأة في الحق دون مواربة أو زلفى إلى أحد، وقوة إرادة لا تلين أمام أكبر العوائق والمعطلات، وإيثار على نفسه لمن يستحق في نظره الإيثار ولو كان به خصاصة.

كما حدثنا عنه زميلنا أستاذنا في دار العلوم الشيخ مصطفى عناني بأنه كان وهو طالب من أرفع الطلبة أخلاقا، ولذلك اختير للبعثة التي تبعثها وزارة المعارف إلى إنجلترا، فكان من خير العناوين التي دلت على أخلاق الطلبة المصريين هناك، بعث حميدا ورجع حميدا، ولذلك كررت الوزارة اختياره مبعوثا إلى بلاد الإنجليز على صورة غير الصور الأولى، هي أنها أرسلته في المرة الثانية ليملأ كرسي اللغة العربية في جامعة «أكسفورد».

هذا ما سمعته ممن خالطوا الشيخ وعرفوا كنه أخلاقه، أما أنا فلي في هذه المعرفة الخلقية قصة أرويها: كنا ونحن طلبة بدار العلوم، حوالي ابتداء العشرة الثانية من هذا القرن العشرين– نقرأ مقالات الشيخ في

مجلة الهداية وفي صحف الحزب الوطني، فنعجب بها أكبر الإعجاب، وكان بعضنا – وأنا واحد منهم– يكادون يحفظونها غيبا، ولهذا الإعجاب بآثاره القلبية عرفنا دار الحزب الوطني بشارع الصنافيرى، وكنا نتردد عليها لنسمع الشيخ إذا خطب الحاضرين، أو تحدث إلى الزائرين.

كان الشيخ صريحا غاية الصراحة في كل آرائه، ومنها آراؤه الوطنية، لم يكن يعرف لغة اللف والدوران والمواربة، ولكن الذي كان يكنه فؤده هو الذي يكتبه صريحا بقلمه أو يلقيه بلسانه ولذلك كان السيد علي يوسف صاحب «المؤيد» يصف الشيخ من هذه الناحية بأنه «ناعم الأظفار» في أسلوبه السياسي، أي أنه لا يعرف غير الجهر بما يعتقدون أن يحاول مواربة فيه أو مداراة.

جرى الشيخ في كل حياته السياسية على هذا المنوال، ولذلك كثرت محاكماته، وكثرت سكناه السجون، لا يأسره مال أو مرتب مهما كبر، ولقد فارق الغازي مصطفى كمال الذي عيَّنه في منصب ديني كبير في تركيا – لما أراد أن يفرض عليه رأيا معينا في الخلافة لم يقبله الشيخ، فارقه مضحيًا بمرتبه الكبير الذي هو بحاجة إلى أقل منه، كما فارق من قبل مرتبه الرتيب هو المفتش الأول بوزارة المعارف. فارقه إلى العمل في الصحافة الوطنية خليفة لمصطفى كامل، وهو لا يدري بعد ذلك ماذا يكون مصير عيشه، ومصير أولاده.

بلغت به كرامته ألا يتلوث في طريقه السياسي، مع شدة حاجته فقد أبى أن يتصل بالخديوي عباس في وقت كانت فيه القربى إلى هذا

الحاكم مبلغة صاحبها الجاه العريض ووفرة الرزق، وقد كتب هو في هذا الشأن في خطاب أرسله إلى الحكومة المصرية، ستعلم نبأه بعد حين في موضعه.

قال في هذا الخطاب:

«.. فأما الدور الأول إذا كان ملك مصر يأمر وينهي، ويمنع ويعطي، تعنو له الوجوه، وتطأطئ له الرءوس، دور الجلال والعظموت، والصولة والجبروت، فهل اجتذبتني إليه رغبة، أو هالتني منه رهبة؟ لقد والله تذرع إليَّ بكل الوسائل، واستدرجني إلى لقائه بصنوف القربات، فهل أفلح له سعي، أو تحقق له أمل؟».

أما ظرفه وخفة روحه والرغبة في مجالسته والاستماع إلى حديثه؛ فقد حدثني عنها محام كبير من الحزب الوطني- وأرجو له طول السلامة - بأنه كان في أحاديثه وسمره ومجالسته- آية الآيات، لا تمله ولا تعافه، تقضي معه الساعات وكأنها دقائق.

هذه خلاصة عن أخلاق الشيخ، صدَّرت بها الحديث عنه لنعرف لمن تكتب هذه الترجمة من الناحية الموجهة في الحياة، الناحية الخلقية، والناس كما يقولون: مسيرون بأخلاقهم.

الشيخ المربي المدرس

ليس في التعبير بالمربي والمدرس، ترادف كما يبدو، فالتربية غير التعليم، التربية تتعلق بالنفس وكمالاتها، والتعليم يتعلق بالعلم ومدارسته وتحصيله، والتحدث عنهما متلازم غالبا إذا كان الحديث عمن يحترفون التعليم.

***

طلب الشيخ العلم في الأزهر سنة ١٨٩٢ ثم تخرج في دار العلوم سنة ١٨٩٧، ثم عين مدرسا للغة العربية بمدرسة الزراعة، وكان من سنن وزارة المعارف أن ترسل من خريجي دار العلوم بعثة سنوية إلى إنجلترا، وغني عن البيان أن الاختيار كان لا يقع إلا على أفضل الخريجين علما وخلقا، وعلى هذا الأساس اختير الشيخ هو وزميل له «محمد عاطف بركات» الذي كان وكيلا لوزارة المعارف، وبعد رجوع الشيخ من إنجلترا سنة ١٩٠١ عين مفتشا على مدارس الحكومة فلم يكن همه إحصاء الأغلاط على المدرسين وتدوينها في تقاريره فحسب.. كما هو الشأن في بعض المفتشين، بل كان همه الأول الذي دفعه إليه إخلاصه في عمله– أن يصلح من حرفة التعليم التي كانت في وقته تسير على طريق التلقين وتحفيظ الدروس واستظهارها، ولا أدل على ذلك بأكثر من أنه ألف للمدرسين كتابا قيما طبع سنة ١٩٠٣ لم يسبقه إليه أحد في

موضوعه سماه «غنية المؤدبين»، ولما لم يكن من قصد الشيخ أن يرشد المدرسين إلى أقوم السبل في الناحية العلمية ليس غير فيسمي كتابه بهذا المقتضى «غنية المدرسين»، أقول لما لم يكن قصده هو الإصلاح في هذا الحيز الضيق فقد سماه غنية المؤدبين «ليشمل إرشاده الناحيتين ناحية التربية وناحية التعليم»، وفرق كبير بين التربية وبين التعليم كما أسلفت، ولذلك جاء كتاب الشيخ فيما قصده جامعا الحسنيين وقد أوضح أوليته والدواعي إلى تأليفه في مقدمته بقوله.

«وبعد فلما كانت اللغة العربية لم يوضع فيها في التربية وأساليبها شيء على النسق الحديث وقد اشتدت حاجة المؤدبين في هذا الزمن إلى كتاب يهتدون به في هذا الفن – أردت إجابة لمطالب هذه الحاجة الشديدة أن أضع عجالة صغيرة تكون بحول الله مرجعا لمدرسي فن التربية، وجمعت في هذه العجالة ما تدعو الحاجة إليه في تعليم الناشئة».

وبهذا الكتاب التربوي كان الشيخ أسبق من عالجوا أمراض حرفة التعليم في وقته بما وضع فيكتابه هذا من أساليب جديدة هي أساليب طريقة الاستنتاج بالمحاورة وهي أمتن الطرق في تسهيل التعليم وتيسيره على الناشئين، وأذكر أسطرا من هذا الكتاب في باب إرشاد المرشدين:

«أن يكون المعلمون في سيرهم وأخلاقهم مثالا حسنا من جميع الوجوه لتلاميذهم ولمن جاورهم من الناس، وعليهم ألا يقتصروا على تعليم تلامذتهم المواد المقررة في فهرس مواد التعليم، بل يجتهدوا في

تعويدهم المحافظة على الأوقات وعلى الجد والطاعة والتأمل في الأمور والذوق في المعاملة والشفقة بالناس».

وأعتقد أن هذا الكتاب كان فتحا جديدا في بابه وأغراضه، وقد طبع في سنة ١٩٠٣ ثم توالت بعده الكتب في هذا المجال حتى صار التأليف في هذا النوع مما يلزم به القادرون أنفسهم من أفاضل المعلمين إلى يومنا

***

وكذلك ألَّف الشيخ كتابا آخر في اتجاه آخر هو «مرشد المترجم»، ولمن أُلف هذا الكتاب؟ إنه أُلف لخريجي مدرستي المعلمين العليا والوسطى، وهم الذين يقصر عليهم تعليم الترجمة، ولي أن أستنتج من تأليف هذا المؤلف أن الشيخ كان على درجة طيبة في التمكن من اللغة الإنجليزية، أما قيمة هذا الكتاب فقد تستفاد من أنني كنت أتحدث منذ سبعة عشر عامًا مع مدرس فاضل تخرج في مدرسة المعلمين العليا فجاء ذكر هذا الكتاب فأخبرني أنه استفاد منه فائدة كبرى بعد تخرجه، وأكد لي أنه استفاد منه هذه الفائدة لما عين مدرسا للترجمة سنة ١٩٠٩، وأن الشيخ قد سد بكتابه هذا فراغا كان ملحوظا في تدريس الترجمة.

وبينما الشيخ يقوم بإصلاحاته في التربية والتعليم بمصر، بعد أن عاد من إنجلترا سنة ١٩٠١، إذ بوزارة المعارف تختاره لكرسي تدريس اللغة العربية بجامعة «أكسفورد»، وهذا اختيار يدل على الكثير من تقدير

الشيخ في علمه وفضله، وخلقه الكريم، وأنه كان مقدرا حق قدره منذ أن بدأ حياته العلمية.

***

لقد كان الشيخ في وزارة المعارف – معلما فمفتشا – ليس له من الأمر شيء في ترقية التعليم لأن الأمر بيد الإنجليز، فلم يكن في المركز الذي يجعله مصلحا للمناهج كما كان مصلحا لطرق التعليم بما قدمت له من مؤلفات، وهو الأمر الذي أمكنه بمقتضى حدود وظائفه أن يصلحه، ولكنه لما ترك الحكومة ووظائفها – كما ستعرف– صار حريصا في أفكاره طليقا من كل قيد فيما يصفه كعلاج لسقم التعليم وأمراضه بما صنعه المحتلون الذين وضعوا مناهجه في دائرة ضيقة تخرج من موظفين للدولة التي كانوا سادتها وكبراءها.

ظهر اتجاه الشيخ هذا في إصلاح التعليم كأداة من أقوى أدوات النهوض الشعبي بما كان منه لما انعقد المؤتمر السنوي للحزب الوطني يوم ٧ من يناير سنة ١٩١٠، وكان هذا المؤتمر يتألف من الجمعية العمومية لهذا الحزب، يحمل فيه خطباؤه على الاحتلال حملات شعواء إلى أغراض أخرى تلتف حول فكرة القومية ومقوماتها فاختار الشيخ نصيبه في هذا المؤتمر الحديث عن البعثات العلمية ورياض الأطفال «محمد فريد ص ١٣٩ للأستاذ عبد الرحمن الرافعي».

وكذلك وضح فيه هذا الاتجاه لما أسس مدرسة ليلية سماها «الإعدادية الليلية» يتعلم فيها الأزهريون اللغة الفرنسية.. ومن خطبة له

في ذلك.. فأنشأت لذلك مدرسة ليلية فأمها في أول الأمر الكثيرون من الأزهريين بين علماء وطلبة حتى بلغ عددهم نحو أربعمائة طالب «المجلد الثاني من مجلة الهداية ص ١١٥».. وقد اختار من هؤلاء الطلبة بعثة إلى فرنسا، وقد قال في ذلك أيضا: سافر أولئك الطلبة النجباء إلى أوروبا، وسافرنا معهم إذ أنسنا منهم الحاجة إلى معين قد خير آداب القوم وعاداتهم ثم غدونا بهم إلى مدرسة المعلمين فتبوأنا لهم بها المساكن.. ولبثنا في مدينة «مونبليه» أسبوعا نزورهم فيه كل يوم، هنالك ودعناهم قافلين لا نرجو لهم إلا الخير والتوفيق حتى يؤدوا إلى الأمة ما تؤمل فيهم وترجو منهم « المرجع السابق ص ١٤٤».

وكذلك عقد هو ومعاونوه مؤتمرا كبيرا في مدينة المنصورة في فبراير سنة ١٩١١، وألقى فيه خطبة جامعة في إصلاح التربية والتعليم جمع فيها بين آراء الأستاذ الإمام محمد عبده وبين آرائه هو وآراء كبار المؤلفين في إصلاح التعليم، وعندي أن ترجمة الشيخ تكون ناقصة إذ أنا لم أنشر هذه الخطبة كلها مع بعض إيجاز لا يخل إطلاقا بشيء من أغراضها، وإذا لم أثبت نصوص الشيخ في آرائه الحرة في أهم مقومات الأمم وهو العلم والتعليم وأنا أترجمه فبأي شيء آخر أظهر شخصيته وآراءه في تاريخ التطور العلمي؟ إنني أنشرها في إعجاب بهذا المشروع العلمي الكبير فقد وضع أسسا للتعليم لم تكن معروفة، كما نقل لنا فيها آراء الإمام محمد عبده، فإثباتها فيه فائدة مزدوجة.

وقد أكد لي كبير بوزارة التربية أن أكثر تشريعات الشيخ في خطبته هذه – من أقوى الأسس التي تطور بها التعليم في مصر، قال الشيخ:

"أيها السادة: إنني لا أريد أن أقف موقف البدوي بأطلال الديار يناجي صامتها، ويبكي من ذكرى أحبابه النازحين عنها، فإن الأمة اليوم شديدة الحاجة إلى شرح الوسائل التي تؤدي الآخذين بها إلى غايتها المعنية وضالتها المنشودة. لهذا لا أحب أن أخوض في وصف ما نحن عليه اليوم من الانحطاط في الأخلاق، وما آل أمرنا إليه من فرط الجهل بالعلوم والفنون والحرف التي هي الوسيلة لمن شاء أن يعيش في بلاده حرصا سعيد الأوقات هنئ البال على الكلمة مهيب الجناب".

ولقد عرفنا من تاريخ المحتلين أنهم ما دخلوا بلد إلا وبدأوا بتجريد أصحابه من قوة القوى وعلة العلل وهو العلم ولو أن الأمة عقلت في السنين الخالية ما أريد بها من الأذى وما أعد لها من صنوف المكائد الخفية لما بلغ بها الخدر والفتور هذا الحد الذي أصبحنا جميعا نشكوه، ونحذر ما بعده من منازل التقهقر أو التدهور، نعم استيقظ المرحوم الشيخ محمد عبده لوأد تلك المكائد، فلقد عثرنا له على مجمل آرائه فيما يجب أن تكون عليه التربية بمصر، قرأنا ما جاءنا به من وصف ما كانت عليه التربية هنا منذ عدة أعوام فوجدناه كأنما يصف ما عليه نحن اليوم فلنقتطف منها ما يأتي:

المدارس الأميرية

١- في زمن إسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ولكن من الأعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة يحتاج في الوصول إليها إلى بعض الفنون، ومن الفقراء الذين لا يجدون ما يقتات به أبناؤهم فيرسلونهم إلى المدارس ليستريحوا من نفقتهم. ولم يكن القصد من جمع تلك الأموال إلا أن يتعلم التلميذ ما يؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيا من كراسي أقلام الدواوين. أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا في نفسه يحسن القيام بالعمل الذي يفوض إليه في الحكومة أو في غيرها فذلك لم يخالط عقول المعلمين، ولا من ولاهم أمر التعليم، فسرى ذلك من السابقين إلى اللاحقين حتى اليوم. ولو كشفنا عن أذهانهم لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا عليها، ولو بحثنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقصد سوى أنهم يلقنون ما يجدونه في الكتب المقررة للتلاميذ ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقي إليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة، ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد، ولا مطامح أنظارهم هل إلى نافع أو ضار، وذلك رسم يؤتيه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير ولهذا لا يكون تلامذتها في آخر الأمر إلا صناعا أو ناطقين ببعض الأسئلة، ولا ثقة في الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم إلا من كانت له فطرة سليمة أو له موهبة طبيعية فأولئك تؤدبهم الأيام وتهذبهم التجارب، وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا

تزال، فإن استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه فلا يؤول ذلك بالمصريين إلى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع.

المدارس الأجنبية

٢- وأما المدارس الأجنبية على تنوعها فاختلاف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية، فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها، ومن أرسل بولده إليها دوام نصيحته بعدم الالتفات إلى ما يقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده، ثم ذلك يحدث من الاضطراب في طبيعة الفكر والتزلزل في الأخلاق ما يكون ضرره أكثر من نفعه، وقد غلط من زعم أن لتلك المدارس الأجنبية أثرا سياسيا أو أدبيا في مصر، بل قد أحدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم، ولذلك تاريخ في البلاد معروف، فهي ضارة بالألفة مبعدة للمحبة رغما عما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك فلا يصح الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الأهلية على اختلافها.

المكاتب الرسمية الابتدائية

٣- تلاميذ هذه المكاتب لا يزالون إلى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلاؤهم بتعليمهم التوصل بهم إلى خدمة الحكومة، سواء نالوا ما قصدوا

أم لا، إلا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم إلى نهاية التعليم المعد لذلك، فيرجع الولد إلى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب عارفا ببعض مباديء العلوم التي لا يجد لها موضعا تستعمل فيه، فلا يلبث أن ينساها فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة، ثم أنه يعود بأخلاق أشد فسادًا من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم، ويجد في نفسه نفرا وعجزا عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبل، فيقضي عمره في البطالة أو ما يقرب منها فتزداد أخلاقه فسادا وأفكاره اختلالا ويقف نفسه عبادة الأوهام وخدمة الدسائس التي تنبه إلى طلب ما يغير الحالة من نفسه بلا تعقل، فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضوا نافعا لها.

فأول ما يجب إصلاح هذه المكاتب ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى في البروجرام إدخال مباديء العلوم في وجهها العملي، مطبقة على المعروف في المعاملات التجارية وحساب الصيارفة الأميريين وغيرهم، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال في الأوراق والدفاتر، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك ويدخل فيها الأوزان والمكاييل، وإن كانت مباديء هندسية فليدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد أو على أفضل منها وما يؤخذ من قواعد اللغة العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية والمشاركات المتداولة بين الأهالي، حتى إذا انفصل من المكتب يكون عنده ما يحتاج إليه شخصه أو عائلته أو أقاربه وأهل بلده، فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه، ثم يضم إلى ذلك تعويده بعض الأعمال

الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة، أو يخصص لذلك يوم في الأسبوع ليعلم كفلاء التلاميذ أن للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة، وأنهم إذا لم ينالوا الخدمة فإن لهم شأنا سوى البطالة والتفرغ للأوهام الرديئة.. ثم يُضاف إلى البروجرام مباديء العقائد الدينية على الأصل الصالح وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الألفة ويصرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة وشيء من تاريخ البلاد وما كانت تعانيه في سابق زمنها، وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ليعلم التلميذ أنه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة، فيتعلم الخضوع والانقطاع لكل حسن فيما يصدر منه، ثم يكون أهم العناية بحمل التلاميذ على العمل بما يعلمونه من الآداب وتشديد المراقبة عليهم في ذلك وتوضع لهذا لائحة مخصومة يحدد فيها البروجرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم، ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض إليه مراقبة أخلاق التلاميذ وملاحظة أعمالهم، فإذا أتم التلميذ مدة المكتب الابتدائى ولم يتسير له أن ينتهي إلى غاية التعليم رجع إليه بشيء نافع، ونمت فيه الأخلاق الصالحة والأفكار الحسنة، وانطبع قلبه على الخير والسلامة وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ونبت في قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه، فلا يكون إلى فؤاده سبيل للوساوس ولا منفذ للدسائس.

٤- وإني لا أزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة، وأن فوائده ربما نقلت إلى أقطار أُخر فعادت بجزيل الخير على من نماه، وفي

الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطان وللمحكومين له ويسهل تقرير أمره فيمن صلحوا بإصلاحه على قاعدة المحبة والألفة لا على طائشة الإخافة والرهبة. ويكون بذلك قد كون لنفسه شعبا جديدا يعينه في الشدة، وينصره في الفتنة ويعضده في ساعة المحنة، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره، وتزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية وحمى الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى سلطته وعرض نفسه لغير الزمان وسياسته ولنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه، والله ولي الأمر وبيده كل شيء يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

هذه ملاحظات الأستاذ رحمه الله في التربية هنا في ذلك العهد، وما أشد مطابقتها وملاءمتها لما نحن عليه اليوم من الحالة التي أصبحت مبعث آلامنا ومجلبة قلقنا واضطرابنا، سمعتم ما كتبه فهي تلك المعاهد للذكور مما أهاج بالطبع آلامكم، ولو أنه كان اليوم حيا وتناول القلم ليكتب في مدارس البنات ونظامها وبرامجها وكيف يعبث بها وتضيع الأموال الطائلة على غير طائل بين جدرانها لترضيتهم عن تلك المدارس التي أفاض في بيان قصورها ومقت نظامها وتدبيرها وحقر من غايتها وزهيد مآربها.

أيها السادة: طالما التبس الأمر على الناس فظنوا أن العلم هو التربية، وأن المدارس ما أقيمت ألا ليلقن فيها النشء مباديء العلوم وقشورها ولهذا لم يدركوا تلك الحقيقة التي إن لم يرجعوا إليها ويتدبروها فليسقطن في هاوية لا مخرج لهم منها.

تلك الحقيقة هي أن هناك بونا شاسعا بين التربية والتعليم، ولقد جئنا على كلمة في هذا المعنى في كتابنا «غيبة المؤدبين» لا بأس أن نوردها هنا وذلك نصها.

«ليس المراد من تربية الأشياء وتقويتها أن يزاد في مقدار حجمها، بل المراد تهيئتها وتمكينها من القيام بأعمالها وتأدية وظائفها بما ينبغي من الحذق والإتقان والسرعة، وعلى ذلك يكون المراد من تربية العقل تثقيفه وتقويمه حتى يمكنه أن يتنبه للمعلومات فيزنها بميزان الاعتبار ويدقق فيها حتى لا تخفى عليه دقائقها، كما أنه يصرف قواه في وظائفها على أكمل الأوجه.

ولا وسيلة للتقوية والتربية إلا التمرين والاستمرار بالشيء على تأدية وظيفته، فإذا أريد تقوية اليد أو الرجل مثلا وجب تمكينها وتمرينها على العمل اللائق بها، وإذا أريد تقوية العقل وجب أن يحمل على أداء وظيفته ويمرن على الأمور العقلية التي لا تجهده ولا تكلفه ما ليس في طاقته، كما أنه يجب تعهد جميع القوى مثل الإرادة والوجدان بأن يكون لها نصيب من التربية والتمرين.

أقسام التربية

قد علم مما سبق آنفا ما قيل في معنى التربية فلنذكر هنا أقسامها فنقول:

اعلم أن أقسام التربية ثلاثة، وهي التربية الجسمية والتربية العقلية والتربية الأدبية، ولنتكلم عليها على هذا الترتيب فنقول:

التربية الجسمية

علاقة هذه التربية بالجسم أنها هي الوسيلة التي تتخذ لتنمية الجسم وتقويته ووقايته من العلل والضعف، ولا يخفى عليك مبلغ الحاجة إلى هذه التربية، فإن سلامة الجسم ونشاطه لمن أكفل الوسائل بإتقان الأعمال الحيوية، سواء كانت بدنية أو عقلية، ولذا قيل إن من أول أسس النجاح أن يكون الإنسان حيوانا صحيحا، وإذا تأملنا فيما نشاهده دائما من اختلال نظام الجسم نعلم مبلغ ارتباط الفكر بالجسم وحاجة الأول إلى سلامة الثاني، كيف ولا هل الجسم وحواسه إلا سبيل تسلكها حقائق الأشياء فتنتهي بها إلى العقل.

تحتوى التربية الجسمية على كل ما يلزم لتنمية الجسم وتقويته كالتمريض والتغذية والإدفاء والرياضة البدنية؛ فعلى القائم بأمر التربية أن يلم بجميع ما يلزم له في سبيل تدبير المدرسة وتنشيطها الطبيعي، وكذا ما يلزم العلم به من قواعد الصحة، حتى إذا ما درسوا أخلاق الأطفال وطبائعهم، وكذا ما ينجم عن الأماكن والأوضاع غير الصحية من الأمراض والعلل، أمكنهم أن يسيروا بالأطفال في طريق السلامة مهتدين بما تعرفوه من مسائل تلك الفنون ومن ذا الذي لا يوجب على المعلم أن يعرف أمثال القضايا التالية.

١- الجسم بما فيه من أعضاء لا يستطيع أن يقوم إلا بما لا يشق عليه من الكلف.

٢- تحريك أعضاء الجسم يزيل ما يحدث السكون الطويل من الفتور.

٣- يجب ألا تطول الدروس حتى لا تحدث في نفوس النشء مللا، وتعتبر في ذات أعمال التلاميذ والموضوعات ونحوها.

التربية العقلية

الغرض من هذه التربية أن تمرن القوى العقلية وتدرب حتى تؤدي وظائفها على أكمل وجه ممكن، وكذا أن تودع القوة الحافظة كثيرا من مسائل العلوم والفنون، وقد عرَّف الفرنج العقل فقالوا إنه القوة التي بها الإحساس والتفكر والإرادة، فالتربية العقلية يجب أن يرى بها إلى إبلاغ الإنسان درجات الكمال في تلك المظاهر الثلاثة.

التربية الأدبية وتقويم قوة الإرادة

للإنسان قوة الإرادة التي بها تخصيص إحدى جهتي الممكن من الأعمال وهما الوجود والعدم، والغرض من هذه التربية تقويم هذه القوة وتعديلها بحيث لا تنحرف بالشخص عن الجادة القويمة في أعماله وأحواله، فيها يتعلم الإنسان الواجبات ويتعود إقامتها وبها تهذب صفاته وتتمحص غرائزه وطباعه ويحسن سلوكه وتستقيم معاشرته.

وبقدر ما تتربى تلك القوة في الأطفال تكون درجاهم في الإنسانية، فإذا حسنت إرادهم وقويت عزائمهم وصلوا إلى الكمال الإنساني أو كادوا. وإذا ضعفت أو خبثت انحطوا إلى عالم العجماوات، فلا ينبغي للمعلمين أن يهملوا الأطفال مندفعين فيما هم مفطورون عليه من الشهوة والانفعالات المحضة لتبين لمن يقر بها بالحكمة والتدبر لعواقب الأمور، بل عليهم أن يبرزوا لك الإرادة في أبهي صور الكمال، ويوجهوا كل عنايتهم إلى تقويتها، ويعودوا الأطفال المروءة وحب الخير حتى يشبوا راغبين فيه مصورين بعزائمهم الماضية نحو ذلك الكمال، وكيف لا يسوغ للمعلم أن يقف بالإرادة والاستقلال مواقف الريب والشكوك، ويضرب الحجر على أفكار الشبان أو إيصالهم بالانقياد المطلق ولا يحبب إليهم العزيمة الماضية والإرادة الصارمة وهي أس السعادة والهناء، فعلى المربي أن يغرس في الأطفال الميل إلى العمل للاكتساب والربح من الوجوه الشريفة، وأن ينبههم إلى معنى الشرف ليدافعوا عنه ويرغبهم في التعارف وحسن المعاشرة مع أبناء جنسهم، ويلفت نفوسهم إلى الرغبة في الأعمال العقلية المقيدة الموصلة إلى إحراز المعاني والفضائل التي تكسبهم شرفا ومجدًا.

وإذ تبين هذا نقول: إن مراتب التعليم ونظام التربية يجب أن يكونا على النحو التالي:

١ـ بستان الأطفال

يتلقى فيه الأحداث مباديء جميع العلوم في صورة لعب تلذ لنفوسهم، والغرض منه إنما هو ترشيح الطفل وإعداده للقيام بمهام الحياة

المستقبلة، مع تعويده الترتيب والنظام في حركاته وسكناته، وأن يتجنب الفحش والرذيلة التي يكتسبها الحدث من أهله إن كان في الطبقة الدنيا، أو من خدامه وأولاد جيرانه إذا كان في إحدى الطبقتين الأخريين.

مدة الدراسة في هذا القسم أربع سنوات يبتدئها الطفل وهو ابن ثلاث.

مواد الدراسة:

أ- الموسيقى والغناء، والغرض منهما تهذيب الإحساس وترقيق العواطف والطباع وترقية فاضل الأخلاق.

ب- اللعب والغرض منه الوصول إلى الحقائق الثابتة، والتدرج منها إلى التفنن والاختراع الذي يكتسبه الطفل أثناء تلك اللعب، وإكسابها الأشكال التي تجول بفكره وهي أنواع كثيرة لكل منها غرض مخصوص.

جـ - الألوان، وذلك لكثرة ما تفيد في تحديد الأشياء وتمييزها ودراستها مما يزيد الذوق رقة والفكر دقة.

د- الأحجام، ولدراستها فوائد كثيرة جدا ليس هذا موضع بسطها.

هـ - الرسم، والغرض منه تمرين قوة التمثيل على تأليف الصور الذهنية وإبراز ما يجول بالفكر من المدركات وصور المعقولات إلى الخارج،

وينتهي تدريب الأطفال على الرسم بتمكين قوة الاختراع والإبداع من نفوس المتدربين.

و– التهجي والمطالعة، ولهما في هذا الدور طرق مختلفة ولكنها جميعها تناسب قوة الأطفال في سنى دراستهم هذه. أما الغرض من التهجي والمطالعة فظاهر لا يحوجنا إلى الإطالة في البيان.

ز – الآداب الدينية ومكارم الأخلاق، وهذه يجب أن يكون مصدرها في هذه السنين القدوة الحسنة والمثال الصالح الذي هو المربية أو المربي الذي حوله، ثم ما يتلقاه من الحكايات والقصص والآيات السهلة الحاثة على مكارم الأخلاق المرغبة في اكتسابه الخيرات وصالح الأعمال، فإذا أخذ الأحداث بتلك المواد على أوجهها المبينة في علم التربية فإنها تكسب العقل والجسم في النمو والجودة ما يفيد الأطفال في مستقبل حياتهم، فهي تعودهم التدقيق والبحث والتأمل في الأشياء وترشدهم إلى التفكر وتعودهم الاستقلال به عند أنفسهم، وتبعث في نفوسهم حب العمل والسرور بمباشرة شئون أنفسهم ثم تحملهم فوق ذلك على الحركات البدنية النظامية التي تساعد على نمو الجسم وتدبيره.

«المرتبة الثانية القسم الابتدائي»

«مدة الدراسة بها أربع سنوات»

تمهيد:

لما كان الغرض من التربية والتعليم هو إعداد النشء للحياة المستقلة والعمل، وجب توجيه أنظارهم إلى ما يمكن اقتناؤه للانتفاع به عند الحاجة ولهذا الغرض نفسه وجهت العناية إلى بعض المهمات العملية للاستعانة بها على تخريج أفراد منهم يمكن الانتفاع بهم في الهيئة الاجتماعية والذي رأيناه أن يضاف إلى المقرر العادي في مدارس الحكومة ما سيأتي مفصلا لكل سنة على حدتها مع ذكر الغرض منه.

السنتان الأولى والثانية

الدروس المقررة في برامج المعارف المصرية، ويضاف إليه ما يأتي:

العناية بالأخلاق عن طريق الدين، أما الغرض فواضح فإن الأخلاق الفاضلة والسعي في إنماء بذورها في قلوب النشء من الواجبات وبهما يستطيع النشء العيش في كنف الفضيلة وهي من نفسها تدله على الخير وتمهد له سبيل الحياة وتنقيه من الأدران وتميت مصادر الجرائم التي تئن منها الإنسانية..

وفي السنتين الثالثة والرابعة يضاف إلى المقرر ما يأتي:

«التجارة»:

وذلك أن يلم التلميذ بفائدة كل آلة من آلاتها وأن يدرب على العمل بها حتى إذا ما احتاج إليها عمل بها أو إذا رآها يدله علمه بها على وضعها في موضعها.

«صف الحروف واستعمال أداة الطبع»

الغرض من تعليم الطلبة كيفية طبع الكتب التي بين أيديهم إنما هو تمكينهم من صنعة ينتفعون بها في المستقبل هذا فضلا عن الفوائد المعنوية الجليلة التي يكتسبها بدراسة دقائق هذه الصنعة وأسرارها.

«السنة الرابعة: يضاف إلى المقرر فوق ما ذكر»

«مبادئ الفوتوغرافية»

وذلك أن يرشدوا إلى كيفية تركيب الآلة المصورة وكيفية استعمالها وما تحتاجه بعد ذلك من الأعمال حتى تظهر الصورة على الورق الحساس، ولا بأس أن يعرفوا الأجزاء التي يمكن بها استخراج الصورة ومقدار كل حامض معرفة بسيطة.

«استعمال الدفاتر التجارية»

وذلك أن يتعلم الطلبة ما يسمى فن مسك الدفاتر التجارية والغرض منها، وأقسام الأقلام وفائدة كل قلم وكيفية العمل له، وفائدة هذا الفن ضبط الحسابات التجارية على الطريقة النظامية وتمكين عارفيه

من التماس أسباب الرزق من طريقه ومما يجب أن يوصل إلى ذلك أيضا، وذلك أن يتعلم الطلبة ما يسمى فن مسك الدفاتر التجارية والغرض منها، وأقسام الأقلام وفائدة كل قلم وكيفية العمل به، وفائدة هذا الفن ضبط الحسابات التجارية على الطريقة النظامية وتمكين عارفيه من التماس أسباب الرزق من طريقه وما يجب أن يوصل إلى ذلك أيضا:

١- المسائل الأولية من العلوم الطبيعية.

٢- قانون الصحة.

٣- مسائل أولية في الزراعة.

٤- الموسيقِى.

«**تنبيه**»

الأشغال اليدوية المقررة المذكورة في هذه الأقسام وهي التجارة والطباعة يجب أن يتعلم منها الطفل نوعا واحدا وهو مخير في تعليم الثانى.

«المرتبة الثالثة: القسم التجهيزي»

«ومدة الدراسة به أربع سنوات»

يضاف إلى المقرر في برنامج نظارة المعارف في السنتين الأولى والثانية ما يأتي:

«التجارة»: ولها فائدتان:

١- الجسمية: تمرين الأعضاء وتقوية العضلات مما يكسب الجسم قوة ونشاطا ويجعله صالحا للعمل دقيقا في ذوقه.

٢- المادية: الالتجاء إليها والتكسب بها إذا أعوزته الحاجة.

«الفنون الجميلة»: الموسيقى، الرسم العملي، والزيت.

الفوتوغرافية: التوسع فيها ومعرفة كل الطرق التي يمكن بها استخراج الصور مع شرح ما يتعلق بها من الأحماض اللازمة التي تعين التلميذ على التوسع في الكيمياء وكذلك معرفة التكبير والتصغير والتلوين، وهكذا «التايبرايتر» واختزال الخط بما يعين الطالب على سرعة إنجاز الأعمال مع الدقة وحسن النظام وعدم إضاعة الوقت.

مبادئ فلسفة الدين الإسلامى التي تنمي القوى العقلية وتكسب الإنسان معرفة دقائق حكم الدين الحنيف وسمو أغراضه التي تمحو ما علق بالأذهان من الخزعبلات والخرافات التي كانت السبب الأكبر في انحطاط المسلمين جراء فهمهم الدين على غير وجهه.

الفنون التجارية: التوسع في الفنون التجارية ودراسة القانون التجاري باستيفاء.

مبادئ الفلسفة: الغرض منها تقوية المفكرة وحث الإنسان على التعمق في البحث وعدم الأخذ بالقضايا مسلمًا بها لأول وهلة.

فلسفة التاريخ: والغرض منه فهم الأسباب والمسببات للحوادث المهمة مما يترك أثرًاحسنًا في نفس الطالب ويجعله يتمسك بأهداب الفضيلة التي يقام عليها الدليل التاريخى والنظر بإمعان في أسباب ونتائج الحوادث.

التوسع في التصوير بالزيت: والغرض منه أن يصبح الطالب قادرًا على التصوير باليد واستخدام الألوان في أماكنها مما يقوي غريزة الذوق في قلبه.

مبادئ علم الهيئة: الغرض منه أن يعرف الطالب كيفية نظام الكواكب والمدارات التي تسير فيها وما ينشأ عنها من الظواهر الكونية وأسماء كل منها وما يلحقها من التغيير والتبديل وأسباب ذلك بعبارات يفهمها الطلبة.

الرياضة البدنية: قد حرمت مصر من الخدمة العسكرية الإلزامية، ولهذا حرمت كل الحرمان من ركن من أركان التربية النفسية ذلك الركن الذي تقام عليه كثير من الفضائل ومكارم الأخلاق كالشجاعة والصبر وتضحية النفس في سبيل المصلحة العامة وكالشهامة التي لا يحتمل صاحبها الضيم ولا يقبل الذل وكالمروءة التي تحمل صاحبها على بذل النفيس في سبيل خير البلاد وتحبب إليه التعب والظمأ والمشقة في صيانة البلاد والدفاع عنها، ثم إنها مع ذلك تكسب البدن صحة وتزيده قوة وفتوة.

مدارس البنات:

أسلفنا أن مدارس البنات القائمة غير كافية الأمة حاجاتها ولا وافية بشيء من مطالب المرأة باعتبارها نصف الأمة عليها من الفروض والتكاليف العمومية ما لا يقل عما على الرجل، ولهذا كان حقًّا على الأمة أن تتجنب الأخطار والمضار التي سجلها عليها إهمال أمرها والتلكؤ في إصلاح حالها وتقويم معوجها، ومعلوم أن لا سبيل إلى ذلك إلا بإقامة مدارس تدور برامجها وأنظمتها حول نقطة واحدة وهي أن تخرج من بين جدرانها أمهات عفيفات قادرات على تدبير أولادهن عليمات بتدبير منازلهن وتدبير أزواجهن وتدبير أنفسهن في مختلف أحوالهن.

أما البرنامج الذي ينطبق على ذلك الناموس فيما نرى فهو كما يأتي:

١- القراءة والكتابة وما يتعلق بهما من التفصيلات.

٢- مبادئ الحساب والهندسة العملية.

٣- الرسم والتصوير النظري والعملي.

٤- مبادئ العلوم الطبيعية.

٥- قانون الصحة بأقسامه.

٦- مبادئ التاريخ الطبيعي بأنواعه والعناية الشديدة بقسم الفسيولوجيا.

٧- مبادئ علم النفس ودرس طبائع الأطفال.

٨- تدبير الحامل والنفساء والمرضع في جميع الأطوار.

٩- تدبير الطفل من وقت ولادته.

١٠- تدبير المنزل بجميع فروعه.

١١- الأشغال اليدوية الضرورية التي تزين الغنية معرفتها وتكسب الفقيرة قوتها.

١٢- مكارم الأخلاق مستنبطة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة وكذلك مبادئ فلسفة الإسلام، وما يناسب المرأة من الأحكام الشرعية.

١٣- شيء من الجغرافيا.

١٤- مقدار صالح من تاريخ الإسلام.

الكتاتيب:

يجب ألا تستغرق الدراسة في هذه المعاهد أكثر من نصف نهار من كل يوم، فكتاتيب الريف يؤمها الطلاب من الصبح إلى الظهر ومن بعد الظهر إلى المساء على التعاقب وكل طائفة تقضي نصف نهار في الكتاب يجب أن تقضي النصف الباقى في الغيطان والحقول، وكذلك كتاتيب المدن التي بها المصانع والحرف المدنية تشتغل فيها التلاميذ نصف النهار ثم يذهبون إلى المصانع لدراسة ما فيها من الصنائع والحرف.

التعليم الزراعي:

حري بنا أن نقتبس هنا ما جاء تحت هذا العنوان في كتاب زراعة القطن ومقاومة آفاته الذي ظهر حديثًا لمؤلفه أحمد أفندي الألفي إذ قال:

"من الغريب أن يغفل التعليم الزراعي إلى هذا الحد في بلاد يتعلق كل شيء فيها على الزراعة ويظهر هذا النقص في استعداد الزراع ظهورا جليًا إذا اعتبرنا أن ليس في البلاد ما يسد مسده سوى معلومات زراعية عمومية بسيطة فكان من ذلك أن الأغلاط الزراعية الفاضحة من السلف إلى الخلف من دون أمل بإصلاحها كعدم الحكمة والتروي في اختيار التقاوي والإفراط في استعمال ماء الري وإجهاد الأرض علاوة على ذلك فإن الملاحظة والامتحان وهما أساس جميع معارف البشر يكادان أن يكونا معدومين عند المشتغلين بالزراعة لعدم معرفتهم كيف يستفيدون منها؛ فنشر التعليم الزراعى يكون من ورائه إتحاف معامل التحليل الزراعية بمعلومات مفيدة جدًا في الزراعة، فيتيسر لها ترقية معارفها التي لا تكاد تستحق الذكر الآن، ولذلك وضعت اللجنة الأمنية التالية، وبها تطلب نشر التعليم الزراعي في درجاته الثالث وهي: الابتدائية والثانوية والعليا، وأن يعمد إلى نشر هذا النوع من التعليم في درجاته الثلاث المعتادة فيتم التعليم الابتدائي في مدارس بسيطة أو حقول للامتحانات الزراعية تكون قليلة الكلفة يقضي التلاميذ أوقاتهم فيها بين الأعمال اليدوية والدرس النظري الموجز، ويكون التعليم الثانوي كتعليم مدرسة الزراعة بالجيزة، ويعمم بإنشاء مدارس أخرى من النوع نفسه.

وعندنا أن التعليم الزراعي الابتدائي يكون في حقول التعليم حيث يقضي أبناء الزراعة أوقاتهم في الأعمال الزراعية ويخصصون ساعات معينة للدروس النظرية الموجزة حتى يتيسر لهم استيعاب الظواهر الطبيعية على وجه معقول سواء أرادوا متابعة دروسهم أو الانصراف إلى أعمالهم الزراعية، أما المعلمون في حقول التعليم فيختارون من متخرجي مدرسة الجيزة الآن، وعندنا أن وجود مدرستين كهذه المدرسة لا يكثر على القطر المصري لتسد إحداهما حاجات الوجه البحري والأخرى حاجات الوجه القبلي لما بين الاثنين من التباين.

مدرسة النسيج:

ومما يجب المبادرة بتأسيسه مدرسة للنسيج على مثال ما رأينا قريبا في مدينة ليون يقبل فيها حملة الشهادة الابتدائية أو ممن أتموا دراستهم في الكتاتيب بنجاح مرض. ولقد زرنا في ليون مدرسة من هذا النوع فوجدناها على بساطتها وزهادة قيم الآلات البخارية المستعملة هناك، كثيرة الفوائد جمة المنافع يؤمها الطلاب فيتعلمون فيها ما يختص باستكمال تلك الآلات ثم ما يتعلق بالتلوين والرسم والنسيج بالفعل وهلم جرا.

ومما ينبغى أن يُلاحظ هنا أن لتلك المدارس غلة ربما لا تكاد تحتاج معها إذا بيع نسيجها إلى مساعدات أخرى، وجدنا ثمن كل عدة من تلك العدد نحو عشرين جنيهًا ويكفي أن تحتوي المدرسة المتوسطة على ثلاثين

آلة يستخدمها على التعاقب نحو مائتي طالب يشتغل فريق منهم بالتدريب على النسج تحت مراقبة المعلم الخاص به بينما تشتغل الفرق الأخرى بالرسم ونحوه من المواد المقررة. «المرجع المجلد الثاني من مجلة «الهداية» ص ٣٢٢».

أما المشروع الذي قصد إليه بهذه الخطبة الفياضة وأعلنه بعد الخطبة فهو أشبه شيء بوزارة معارف أهلية وهذه بعض مواده:

المادة الأولى: بين الموقعين على هذا العقد ومن يقبلون في المستقبل بشروطه شركة تعاون أهلية باسم «شركة دار التعليم الأهلية».

المادة الثانية: الغرض من تأسيس الشركة هو تسهيل التعليم على الأهالي بنين وبنات مع تحسين التربية حتى تكون الأخلاق راقية وللوصول إلى ذلك تؤسس الشركة:

أولا: مدارس بساتين الأطفال لتربية الأطفال الذين لا يزيد عددهم عن سبع سنين.

ثانيا: مدارس ابتدائية وثانوية عالية لتجهيز الطلبة للحصول على شهادات الحكومة مع التوسع في التعليم والاهتمام بتحسين التربية.

ثالثا: معاهد للتعليم الزراعي والتجاري والصناعي، ويدخل في ذلك تعليم الفنون الجميلة على اعتبارها طريقة من طرق الارتزاق.

رابعا: ترتيب سياحات علمية وصناعية وتجارية للمتعلمين داخل القطر وخارجه.

كل ذلك ملاحظ فيه تعميم المجانية في المعاهد السالفة الذكر بنسبة لا تقل في أي حال على ٢٥٪. أقول ويلاحظ مما تقدم بيانه من المواد أن الشيخ جاء للتعليم بأشياء جديدة كرياض الأطفال، والتوسع والاهتمام بالتربية وتأسيس معاهد للتعليم الزراعي والتجاري والصناعي والفنون الجميلة وترتيب سياحات على النحو الذي بينه.. وتعميم المجانية بنسبة تساعد الفقراء على التعليم مع الأغنياء ومتوسطي الحال.

وكل هذه مبتكرات في التعليم لم تكن موجودة في الجو التعليمي الحكومي بوزارة المعارف في عهده «وكل ذلك بالمجلد الثاني «من الهداية» من ص ٢٢٣- ٢٦٤».

***

للشيخ مرحلة غير ما تقدم – من مراحل ترقية التعليم هي مرحلة عملية طيبة.

المدرسة الإعدادية

أفردت الكلام عن هذه المدرسة، لأنها كانت نهاية التطبيقات العملية للشيخ في آرائه في التربية والتعليم. كلمة «الإعدادية» كان يراد بها التعليم الثانوى، ولم يكن مدلولها كما هو في هذه الأيام. أسس الشيخ

هذه المدرسة الثانوية بحي الظاهر لتكون مدرسة حرة مثالية، بعيدة عن الضغط الإنجليزى الذي كان هو سياسة «مستر دانلوبي" مستشار وزارة المعارف يومئذ، فكان طلبة المدارس الحكومية أبعد الطوائف عن مجاراة الوطنية في أي مظهر من مظاهرها، فأراد الشيخ بتأسيس هذه المدرسة حوالي عام ١٩١١ أن تكون مثابة الوطنية الصادقة للتلميذ المصري، وقد أدت رسالتها فعلا من هذه الناحية الوطنية، فكان كل طلبتها يدخلونها وهم على علم برسالتها الحيوية هذه، ولذلك يبدو على من كانوا طلبة فيها – حرية الرأي إلى الآن– وقد اختار لها الشيخ ناظرًا آية في الوطنية، وفي العلم الرياضي، وقد استمرت بعد إبعاد الشيخ من بلاده تؤدي رسالتها، إلى أن تركها ناظرها إلى مدرس رياضة بكلية الهندسة.

عاد الشيخ متعبا مما أصابه وما حل به في منافيه طيلة أحد عشر عاما إلى أن فتح وزير المعارف يومئذ باب إصلاح التعليم الإلزامي، ويحدثنا في ذلك الدكتور حافظ عفيفي في كتابه «على هامش السياسة ص ٩٤» بأنه تألفت لجنة في ٢٧ من يونيه سنة ١٩٢٥ لإعداد مشروع قانون للتعليم الإلزامي يشمل اختصاص كل من وزارة المعارف ومجالس الميريات والمجالس البلدية، وما يتطلبه هذا المشروع من النفقات وتحديد مشاركة هذه المجالس.

وهنا أخذ الشيخ يستعيد نشاطه ويدلي بآرائه في هذا الشأن الكبير الذي هو حجر الأساس في رفع الأمية عن الشعب.

ويروي لنا أحمد شفيق باشا في كتابه السالف الذكر، أعمالي بعد أقوالي» أن الشيخ جاويش افتتح مؤتمر التعليم الإلزامي الأولي في **١١** من يوليه سنة **١٩٢٥** وكان حديثه «التطورات الحديثة في التعليم الأولي» وفي هذا العام عين الشيخ جاويش مراقبا عاما للتعليم الأولي.. وكما بدأت حياته بحرفة التعليم الفعلي– ختمت بحرفة التعليم على نسق إدارى إصلاحي كان له فيه الباع الأطول.

الشيخ الأديب

كان للشيخ فطرة أدبية، ميزته وهو طالب بدار العلوم – هو وقليل من زملائه – على الكثرة الغالبة من طلبة المدرسة – وقد سمعت من زميله الأديب الشيخ مصطفى عناني أستاذي بدار العلوم أن الشيخ كان يكتب موضوعاته الإنشائية بأسلوب أدبي، وبأفكار سليمة، مما جعل له، ولقلة معه، سمعة أدبية طيبة.

وقد جربت بنفسي وأنا طالب – أن كثيرين من الخالين من الفطرة الأدبية كانوا يحاولون اللحاق بمن عندهم شيء من هذ الفطرة، فكانوا يقضون الإجازات الصيفية في الحفظ والمطالعات ولكنهم لم يستطيعوا اللحاق، وكنا نصفهم «حفاظ الألفاظ».

ومن هذا الباب ما أخبرني به ولده «ناصر» من أن والده كان يحتفظ ببعض كراساته في مادة الإنشاء، ولكنه لم يقف لها على أثر بعد أن أبعد والده من مصر سنة ١٩١٢ هو وجميع أسرته.

وضح أدب الشيخ بعد تخرجه في معهده، فكان من أول أمره مؤلفًا، وقد عرف أسلوبه الأدبي من تأليفاته، وخاصة من أسلوبه في كتابه القيم «الإسلام دين الفطرة» وإذا كنت أشير إلى هذا الكتاب في هذا

الموضوع فإنها إشارات أدبية بحتة، تتعلق بالأسلوب الذي كتب به الشيخ كتابًا علميًا، وسيجئ الحديث عن هذا الكتاب في موضعه.

يقول في مقدمة باب تعدد الزوجات – إن النقائص التي مثلت بالإسلام في أعين غير أهله، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف – ميزانًا تقدر به قوانين الشرع ونواميسه، فمن قائل بسد باب الاجتهاد، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب إليه ما ليس من دينه في شيء، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير، تذرعا إلى الزلفى منه، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضي الله لعباده، فشط بالناس، واعتسف بهم، حتى ضاقت نفوسهم، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين، فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون».

ويقول كذلك في باب «جمود المتصدين للفتوى»: «أقول ذلك إذ رأيت من الشباب المسلمين من كانوا يطرقون أبواب شيوخ العلماء، ويغشون مجالس أئمة الإسلام، لا لغرض سوى استفتائهم في بعض أصول الدين، والفرار إلى معاقل علمهم وهدايتهم، يتقون بها هجمات جيوش الشكوك والأوهام، حتى إذا استفتحوا عليهم بكلمة واحدة في ذلك، سمعوا من فحشهم وسبهم وتقريعهم ما كان يصد أولئك الحائرين عن مجالسهم، وقد تنازعتهم ضلالات الحيرة، ودفعتهم معاملة الشيوخ إلى اليأس من بلوغ غايتهم، وصلاح عقيدتهم».

كما أقدم لك مثلا آخر من الأدب البحثي للشيخ، هو المقال الذي صدر به ديوان الشيخ علي الغاياتي سنة ١٩١٠ وكان الشيخ الغاياتي من شعراء الحزب الوطني، فأراد محمد فريد بك، والشيخ جاويش أن يلقيا إلى هذا الديوان لفتتين كريمتين، فكتب كلاهما مقدمة لهذا الديوان، وها هي مقدمة الشيخ بعنوان «الشعر والشاعر».

وقد يتوهم بعض المتشاعرين أن الشعر هو تلك الجمل الموزونة ذات الروي الملتزم فتراهم أجرأ ما يكونون في تقصيد القصائد والانتساب إلى دعوى الشعر، معتمدين على جهل كثيرين بأسرار الشعر ومزاياه، وشرائط صحته وكماله، عالمين أن الأدب قليل أهله الذين يميزون بين الخبيث والطيب، ويدركون دقائق الفروق التي بين الأبيات العامرة والأبيات الغامرة، لاسيما في هذا الوقت الذي ضعفت فيه ملكة اللغة العربية، إذ طرأ على العرب من العجمة المتفشية ما أصبح معه الذوق بعيدًا عن السلامة، وتأليف العبارات أحوج ما يكون إلى الاستقامة.

إذا شئت أن تعرف جيد الشعر فدع عنك تفاعيل البحور، والتزام الحروف ومحسنات الألفاظ، واعتبر بما يتركه في نفسك من الأثر، فإن أحسن الشعر ما يملك قلبك حتى تفرغ منه، كما أن أجمل الصور ما يملك بصرك حتى يغيب عنه.

إذا شئت أن تعرف الفرق بين الشعر المطبوع والشعر المصنوع فإن شعرت وقت سماعه كأن معانيه أرواح تناجيك وألفاظه تكاد تخرج من

فيك فذلك هو المطبوع، وإن ذهبت أغراضه بقلبك مذاهب شتى، ولم يجمل في السمع ديباجته وتنسيقه، فذلك المصنوع الذي لا يرد عكر معينه إلا متشاعر جاهل، أو شاعر مأجور، وكيف يحمل الشعر ويلذ استماعه إذا خرج من قلب لا يتأثر، ونفس لا تنفعل، وهل الشعر إلا مرآة يرى فيها آثار الانفعالات النفسية التي تقوم بنفس واضعه.

قال عبد الملك لأرطأة بن سهية كيف أنت الآن في شعرك، فقال والله يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربع.

ليس الشعر أن يمعن الشاعر فيما وراء الحقائق من الصور الوهمية أو أن يسلك سبيل الإغراق في المدح والذم، فإنما الشعر تصوير ما يدور بالذهن من الصور، فكما أن أمهر المصورين ليس ذلك الذي يؤلف بين الأجزاء المتنافرة، أو الذي يرسم على الورق ما لا يطابق شيئًا من حقائق الأشياء الخارجية، بل هو ذلك الذي يعمد إلى أحد الكائنات فيصوره مجيدًا «تظليله»، حتى يخيل إلى رائيه كأنما ينظر إلى ذلك الكائن الثابت في الخارج.

كذلك أمهر الشعراء من يأتي إلى الحكم والقضايا الصادقة فيبرزها إلى السامع بعبارات تصبي الألباب إليها وتدفع المستمع إلى العمل بمقتضياتها.

وماذا عن الشاعر بعد أن يوفي شعره قسطه من الصدق وثاقب الرأي سوى أن يجيد تأليف العبارات، ويحكم مطابقة المعاني بعضها ببعض، فإنما الشعر كالتوقيع واللحن، فكما أن اللحن لا يخف على السمع إلا إذا تناسبت الأجزاء التي يتألف منها، فكذلك الشعر إذا لم تتآلف عباراته ولم تتناسب معانيه، كان صميما للآذان، وغمة لنفس الإنسان، ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعاني وألف بين أحكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئًا من «وطنيتي» ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقدة والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها.

كما أقدم مثلا من أدبه في الرثاء، فقد رثى الشيخ المرحوم «محمد فريد» يوم وفاته بألمانيا «١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩»- بخطبة هي في معانيها عواطف سياسية، ولكنها في أسلوبها الأدبي على صراط مستقيم.

قال الشيخ «مع بعض التصرف»: «أيها السادة، أمام جثة هامدة، وميت لا يعي، نحن واقفون.. كلا.. ثم كلا.. إنما نحن وقوف أمام صفحات من تاريخ الجهاد الأكبر في سبيل الحرية البشرية، في سبيل الذود عن الحقوق الطبيعية للشعوب الإنسانية، في سبيل مصارعة الأمم القوية، ذوات المطامع الأشعبية".

نحن وقوف أمام هذا الراحل الكبير، الذي كان حياته مثالا كاملا للمتشبهين، وقدوة صالحة للعالمين، فها هي تلك صفحاتها الناصعة تربنا كيف جمع فقيدنا العزيز، إلى صلابة العزم، جهادًا لا يوهنه الملل، ولا

يوهيه الكلال، كما ضم إلى الصراحة البالغة في كتابته وكلامه، إقداما يستهزئ بالغوائل ويسخر من كارثات النوازل، لقد رأيناه رحمه الله يوم ساقه الإنجليز إلى السجن بمصر، فما كان إذ ذاك أقل ابتساما منه، يوم فارقه بعد ستة شهور كاملة، قضاها في غيابته وظلماته.

وضيّق الإنجليز المذاهب على فقيدنا، وأخذوا الأبواب والمسالك على قلمه ولسانه، فلم ير بدا من مفارقة وطنه، وأولاده وعشيرته، إذ خرج يلتمس فضاءً يسع صيحاته التي ضاق عنها فضاء بلاده ووقرت دونها آذان أعدائه. جاهد رئيس الحزب الوطني في سبيل تحرير بلاده، وكان يرجو أن ألا تعاجله منيته قبل أن يراها خالية من ظل الجبابرة المغتصبين، فكنا نخشى وقد سارعت إليه المنون أن يحزنه حرمانه من نيل أمنيته، واكتحال عيونه بشمس الاستقلال والحرية مشرقة على ربوع وطنه العزيز، ولكننا رأيناه رحمه الله قبيل وفاته قرير العين مشروح الصدر إذ أبصر كيف تشيد أمته النجية على ما أقامه هو وسلفه الصالح مصطفى كامل باشا من الدعائم المتينة، صرح الحرية والاستقلال، ذلك الصرح الذي سيعانق يوما ما الأهرام ويدوم ما تعاقب الجديدان.

أبصر الرئيس كيف تبني أمته الكريمة حياتها الحرة المستقلة بما يتساقط من رؤوس أبنائها ويتمزق من أفلاذ أكبادها، وبما يتدفق من دماء شهدائها، أبصر فريد كيف أصبحت قواعد الحزب الوطني الذي يرأسه عقيدة كل فرد من أفراد الأمة، وغاية كل مجاهد من رجالها.. أبصر فريد كيف اتحدت كلمة الشعب وتعاقدت خناصره، إذ ألَّف الله بين قلوب

أحزابه وطوائفه، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا، وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها، أبصر فريد كيف نافس في سبيل الوطن المفدى أطفال الأمة وشيوخها ونساؤها – الرجال، ومسيحيوها – المسلمين، وكيف تعانق الهلال والصليب وائتلف القرآن والإنجيل وتعانق الشيخ والقسيس.

وإذا كانت حياة الرجال أيها السادة خيرًا للأمم التي يخدموها فكم منهم من أفاد بمماته بمقدار ما أفاد بحياته، ليس فريد بتلك الجثة الهامدة، والنسمة الجامدة، وإنما هو تلك النفس الأبية والقدوة الصالحة والذكرى الطيبة التي سيجددها بلى الأيام، ويوالي نشرها انطواء العصور والأجيال، فطوبى لمن سن سنة حسنة وطوبى لمن اقتدى بالعاملين.

والآن نستودعك الله أيها الرئيس المحبوب، فنم مغمورًا برحمة الله وإحسانه زودًا من أمتك بالدعوات الصالحة والذكرى العاطرة – والحب الدائم، والسلام عليك ورحمة الله».

***

وجدير بي وأنا أتحدث عن أدب الشيخ أن أشير إلى مدرسته الأدبية.

قدمت أمثلة من أدب الشيخ، في أسلوبه التأليفي وفي أسلوبه الأدبي البحت، وفي أسلوب الرثاء في أدب العاطفة الوطنية، وألحق بها مثلا غيرها، هو مثل سياسي بحت، ولكن الشيخ كتبه بأسلوب الأديب

المطبوع الذي يكتب كل ما يكتب بلغة الأدب، ذلك هو خطابه الذي أرسله إلى الحكومة المصرية، بعد أن عاد إلى مصر مستخفيا، وقد أرسله وهو لا يزال في اختفائه – إلى جميع الصحف المصرية، فنشرته جميعها في يوم «١٣ ديسيمبر سنة ١٩٢٣».

وإليك الخطاب، وهو بعنوان «تجديد العهد» مع تصرف قليل بالحذف:

«لشد ما وددت أن تسلك الحكومة المصرية في معاملتي مسلك الكياسة في السياسة، فتذكر سابق جهادي في سبيل بلادي، وابتعادي عن عزيز قومي وأولادي، ثم تحترم ذلك المقام الذي أحرزته في تركيا وغيرها من الممالك، أرفع به ذكر مصر في الأمصار، وأحارب ما يدبره العداة الأشرار.

«لجأت إلى الحكومة أستميحها الإذن في العودة، ثم جعلت أرقب ذلك الإذن زهاء الأربعة شهور.لم أفعل ذلك لأن الإذن بعودتي ليس من المنح والأعطية التي تجود بها أيدي المحسنين، فإن ذلك حق خوَّله الدستور كل مصري، فمن الخطأ توهم أن تنكره عليَّ حكومة دستورية، ثم لم أقضي تلك الشهور بالانتظار الممل، لأن بيد الحكومة مفاتيح البر والبحر، وطرائق السماء والأرض، وأبواب الولوج والخروج، وسلالم الهبوط والعروج، فلا تتحرك نسمة إلا بأمرها، ولا تنتقل قدم إلا بعلمها، فها أنا اليوم بمصر بعد أن مللت الانتظار، وأشهد على مسلكها المعوج سائر الأقطار، استعنت القادر على كل شيء، فقدمت حيث شئت، ودخلت

من حيث شئت، وأقيم الآن حيث شئت، فهل رأتني عيونها الساهرة أو صدمتني قوتها القاهرة؟ على أنني لو شئت لأتيت من قبل، ولكن أأبى على أدبي أن آتي البيت إلا من بابه، أو أدخله بعد استفتاحه، ولا أخالني بعد الذي فعلت إلا مقدرًا بني وطني الأعزة.

إلى أن يقول:

«أي قومي، لو كنت ممن لا يحبون إلا في أجواء الإعلانات الأمريكية، أو الذين لا همَّ لهم إلا أن يُحمدوا بما فعلوا وما لم يفعلوا، أو لو كنت من المؤلفة قلوبهم الذين يمنون على الوطن وهم حديثوا العهد بما يظهرون من الهداية والتوبة والوطنية، لو كنت من هؤلاء لما تقاذفتني البلدان، وطوَّحت بي الظروف إلى صخور الشدائد، لأتكسر عليها، ولهلت على هذا الوطن من تراب المزاعم والدعاوى ما يجعله مني كالقبر يُهال عليه التراب، لم يبق بعد سوى القبر المعرب عن نفسه، القائم على من في جوفه، بينما ذلك الدفين يعجب كيف تزن الحجارة باسمه وتخلفه في أهله وقومه، على أنه لا يعوزني بحمد الله ما أملأ به أنهار الصحف من الحقائق التي أحصاها التاريخ لو كنت من مهرة أرباب الإعلانات الأمريكية، ولكنني ذلك الجندي الذي لا يتكلم إلا بسلاحه، والخادم الذي لا يعرف غير وظيفته.

إنني ذلك الجندي الذي يحيي بلاده بموته، ويسعدها بشقائه، ويديمها بفنائه، وما أنا بالذي لا يشتغل إلا نائبا، ولا يعيش إلا رئيسا، فلتكن نتيجة الانتخابات ما شاءت الأقدار فإنني لا أنفك قائمًا على

العهد الذي قطعته على نفسي أمام الله، وأمام وطني «أن أجاهد في سبيل بلادي حتى آخر أنفاسي، وألا أطيع في سلامتها والدفاع عن كامل حقوقها، سوى حبها الذي ملأ قلبي، وأمرها الذي هو من أمر الله».

***

هذا الأديب كله له مدرسة أدبية، هي مدرسة التلقي عنه، والعناية بكل ما يكتب أو يخطب، مما كان يبلغ أحيانًا بمحبيه إلى أن يحفظوا عن ظهر قلب، الكثير من آثار قلمه وبيانه، ولو أر موضعا أتحدث فيه عن مدرسة الشيخ هذه إلا هذا الباب.. باب الأدب.

مدرسة الشيخ:

للشيخ مدرسة، أو رسالة، هذه المدرسة أو هذه الرسالة هي أن الناس أولعوا بقراءة وحفظ ما يكتب في الكثير من نفثاته القلمية، ولا ريب أن التقبل القلبي لما يقرؤه القارىء أول أسس الأخذ والاقتداء، وقد كان الشيخ يكتب من قلبه العامر بالإيمان؛ فيصيب بذلك النجاح الأكبر، ويضع قارئوه آثار قلمه في أرفع المواضع من أفئدتهم، وكان الشيخ يحس بذلك التقدير من الجماهير فيبادلهم حبا بحب، ووفاء بوفاء، واستجابة باستجابة، ومن القواعد المقررة أن المبادلة في المشاعر هي أولى الأسلوب في نجاح الرسالات، على اختلاف أغراضها.

كان الشيخ يكتب في «اللواء» ومن بعده في «العلم» كما كان يكتب في مجلة «الهداية» على اختلاف ما كان يكتب في الجريدة من سياسة وطنية وحملات لا تتقطع على الاحتلال وحكومات الاحتلال من المصريين وبين ما كان يكتب في المجلة من تفسير كتاب الله على طريقة الإمام محمد عبده، ومن ثقافات عامة – سيجيء في موضعه عند التحدث عن نشأة «الهداية»، وبذلك كان الشيخ مصدرا من مصادر الثقافات على اختلاف أنواعها وكان يقبل المتعلمون من الشعب عليها إقبالا أكبر، وبذلك تخرّج على الشيخ خلق كثيرون في الساسة والأدب، وفي تفسير كتاب الله وفي كل أنواع المعرفة، وهذا هو أقوم ما تؤدي به الرسالات الإنسانية. وتقوم به العقول، وتهذب به الأخلاق، وتعمر به الأفئدة القلوب.

الشيخ العالم المصلح

أقرن في هذا الباب علم الشيخ بإرشاده في الإصلاح عن طريق الدين مقتديا هو في ذلك بالإمام محمد عبده صاحب المدرسة العليا في تفهم الدين على حقيقته، وفي إصلاح حال المسلمين بواسطته، وفي تفسير كتاب الله العزيز. فكيف تم للشيخ الاقتداء بالإمام؟.. يحدثنا في ذلك السيد رشيد رضا في الجزء الأول من مؤلفه «تاريخ الأستاذ الإمام» بقوله:

«وكان يحضر دروس التفسير غير هؤلاء، منهم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد مجيئه من أوروبا والشيخ مصطفى عناني، وقد كلفاني بأن أقدمها إليه، وأذكر له رغبتهما في الانضمام في سلك مريديه، ففعلت».

بعد أن تمت صلة الشيخ بالإمام، أخذ يتأثره في كل شيء، في تفسير كتاب الله، وفي البحث الديني، وفي اتجاهاته الإصلاحية، وقد سلك لذلك سبيليه، سبيل التأليف، وسبيل الخطابة، فكان فيهما مرشدًا ومعلما، وعالما كبيرًا.

«أ» الشيخ المؤلف:

أسلفت أن الشيخ ألف في التربية والتعليم كتابين «غنية المؤدبين» و«مرشد المترجم» وقد ذكرهما في موضععهما الطبيعي من هذا الكتاب،

وهو التحدث عن الشيخ المربي المدرس. ألف الشيخ كذلك كتابا على طريقة الإمام في البحث الديني، وقد استشهد فيه كثيرًا بآرائه، هو كتاب «الإسلام دين الفطرة» ألفه وهو في بلاد الإنجليز لتدريس اللغة العربية في «أكسفورد» بعد أن تتلمذ على الإمام بعد عودته الأولى من إنجلترا وهو طالب علم سنة ١٩٠١، وقبل عودته منها سنة ١٩٠٦ وهو مدرس بالجامعة المذكورة. والكتاب كله فلسفة علمية تكشف عن وجوه كثيرة من مرامي الدين الإسلامي التي يتم بها إصلاح العقيدة، ومعرفة مرامي الإصلاح من أسرار هذا الدين.

إن عظم الشخصية وجاذبية الذات وسماحة الخلق ليس كمثلهن شيء في تقارب القلوب وتجاذب الأفئدة، ولقد عرف الشيخ عبد العزيز جاويش بهذه الممتدحات كلها عند تلاميذه الإنجليز فأخذوا يزورونه في مقامه يتجاذبون معه الأحاديث في مختلف الشئون، وكان من نتائج هذه الصلة الطيبة بينه وبين تلاميذه – الإنجليز – أن ألف كتابه هذا في بلادهم، وكأنني أصغي إلى الشيخ وهو يحدثني عن سبب تأليف هذا الكتاب، قال في ذلك ما نصه في المقدمة.

زارني ذات يوم، وأنا في أكسفورد من بلاد الإنجليز لفيف من نجباء طلبة العلم في كليتها الجامعة، فما كاد يستوي بهم المجلس حتى أخذنا نتجاذب الحديث في أمر الشرق والشرقيين، وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال التي تباين في كثير من الوجوه ما عليه أهل أوروبا، حتى أفضى بنا المقام إلى الكلام في الإسلام، فوجدت من خلال حديث

القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات، وأن المسلمين يعبدون محمدا كما يعبد النصارى المسيح ابن مريم، وما زادني فيهم بصيرة، فلطالما قابلت من أمثالهم ما وفقني على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف.. فأخذت إذ ذاك أبين، لأولئك الأفاضل أصول الدين الإسلامي وقواعده، وحكم بعض تكاليفه، فكنت أرى القوم يتدبرون ما أقص عليهم، من غير أن يستهوي نفوسهم تعصب، ولا يعمي قلوبهم عناد أو جحود، بل نبذوا وراء ظهورهم جميع ما كانوا يلقنونه منذ المهد، من النقائض التي مثلت لهم الإسلام في أبشع صورة وأقبحها، ولم يكد ينتهي الحديث، حتى انطلق أحدهم قائلا: "يخيل إليّ أيها الشيخ أن الدين لا ينافي الفطرة في شيء"، فأجبته إذ ذاك بما تذكرته من قوله عليه السلام «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه كما تنتجون البهيمة هل تجدون فيها من جدعاء حتى تكونوا تجدعونها"، وترجمت لهم ذلك الحديث الشريف.. والذي يفهم من الحديث أن التهويد أو التنصير صفة تطرأ على الإنسان بفعل أبويه كالجدع الذي يصيب الشاة بعد أن تولد على الفطرة سليمة لا عيب فيها. ويدل على ذلك ما نص عليه الشرع الإسلامي من عدم تكليف القاصرين، وألا يؤاخذوا بما فعل آباؤهم من التهويد والتنصير، حتى يبلغوا راشدين راضين بدين آبائهم، فيؤاخذوا إذا ذاك وقد ألقيت على كواهلهم أعباء التكاليف بما كسبت أيديهم.. إلى أن قال: "فإنا نريد أن نذكر لك وجه كون الإسلام دين الفطرة وأنه لو ترك الطفل وشأنه حتى كبر غير مهود ولا منصر لما اختار بفطرته إلا الإسلام"، ولا يمكن

توضيح ذلك إلا بالبحث في بعض أصول الإسلام وقواعده والأغراض التي يرمي إليها الشارع في تكاليفه.

ويسوغ لي بعد بيان الشيخ أن أستنتج:

أولا: أن الشيخ كان على علم واسع برسالة الدين الإسلامي ومعرفة أسراره، فإنه أخذ من فوره يبين لهم قواعده ويشرح لهم مقاصده في سلامة وحسن أداء، مما استمالهم إلى استماع ذلك الشرح الطويل.

ثانيا: أن الشيخ قد اشتق اسم الكتاب من قول أحد الطلبة، يخيل إلي أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافي الفطرة في شيء" وهو اشتقاق غاية في المحمدة.

ثالثا: أن الذي يترجم حديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، السالف الذكر ترجمة سليمة إلى لغة المتحدث معهم من الإنجليز، لابد أن يكون على إلمام تام باللغة الإنجليزية، وإلا لما استطاع أن يدخل في رؤوسهم معاني هذا الحديث الذي أعتقد أنه لا يسهل فهم المراد منه لكثيرين ممن درسوا قواعد اللغة العربية. وإذا أرادوا معرفة المراد منه فلا غنى لهم عن اصطحاب المعاجم.

وإذا كان الكتاب يُقرأ من عنوانه – كما قالوا – فإن اسم الكتاب ليدل دلالة قاطعة على أن الشيخ عالج ناحية من نواحي الدين الإسلامي صعبة العلاج، فإن إثبات أن الدين الإسلامي هو دين الفطرة التي فطر الله

الناس عليها هو أمر ذو بال لا يعانيه إلا الراسخون في العلم.. المطلعون اطلاعا كافيا على أسرار هذا الدين وبواطنه.

هذا هو عنوان الكتاب، وأضيف إلى عنوانه هذا في سبيل التعريف به إجمالا، فهرسا وضعته أنا أثناء قراءته، يلقي بعض الضوء على موضوعاته التي تناولها في بحوثه، والكتاب ينقسم حسب ترتيب فهرسه هذا إلى قسمين، قسم عام تناول فيه الشيخ بالبحث موضوعات عدة، وقسم خاص بالقرآن الكريم.. بلغت صفحات القسم العام اثنتين ومائتي صفحة.. وصفحات قسم القرآن وحده اثنتين وتسعين صفحة «طبعة دار الهلال».

أما فهرس القسم العام فهو الفطرة والتوحيد.. النبوة والغرض الفطري منها.. القرآن والفطرة البشرية، دعاء نصف شعبان. أعداء القرآن. هل بُنى الإسلام على السيف. دعوة النبي عامة لجميع المكلفين. الإسلام صالح لكل زمان ومكان.. أصول الإسلام. التوكل غير التقاعد.. صفات المؤمنين.. الرق في الإسلام.. المرأة في نظر الإسلام.. المساواة.. زوجات النبي.. زواج النبي بامرأة زيد. الطلاق. تعدد الطلاق.

أما فهرس القسم الثاني من الكتاب الخاص بالتحدث عن القرآن فقد عنون له بعنوان خاص هو «أثر القرآن في تحرير الجنس البشري» وأما فهرسه فهو حرية الفكر قبل الإسلام.. عهد التحرير العقلي.. الحرية في الشرق الأقصى.. القرآن والحرية.. القرآن يخاطب العقل.. موقف القرآن الكريم إزاء المعجزات.. أهل الردة.. الزنادقة.. جمود المتصدرين

للفتوى.. مقام القرآن الحكيم إزاء العلوم والمعارف الكونية.. عهد البحث والنظر.. القرآن والعلوم الحديثة.

ولعلي قد أصبت في ذكر هذه الفهارس التي لم تعن بإثباتها دار الهلال التي طبعت الكتاب، ولكنني أنا الذي التقطتها من الكتاب أثناء قراءتي إياه.. أثبتها لتعرف الموضوعات التي عالجها الشيخ في مولفه وأنها حقا كانت موضوعات جديدة على من تحدثوا في هذا العهد عن الدين الإسلامي.. اللهم إلا الإمام محمد عبده صاحب المدرسة العليا في فهم الدين على حقيقته وفي تفسير القرآن الكريم.. وكانت هذه الروح التي تحدث بها الشيخ جاويش مقتبسة من تلمذته على الإمام في حضور درس بل كان من مريديه الخواص.. ولذلك رأيناه في كتابه «الإسلام دين الفطرة» ناحيًا نحو اتجاهات الإمام في آرائه الدينية وتوجيهه تفسير الكتاب العزيز بما وعاه منه إما بالمشاهقة وإما بما فتحه له من كيفية السير في المحاجة الدينية.

ونهاية كلامي عن هذا الكتاب هو أنه كان المؤلف الذي قدمه الشيخ إلى مؤتمر المستشرقين في مدينة الجزائر لما دعته الحكومة المصرية وهو في إنجلترا ليمثلها في هذا المؤتمر سنة ١٩٠٥.

***

ويلحق بهذا النوع التأليفي للشيخ ما قد يرى ظاهرا أنه ليس من التأليف، ولكنه في الواقع منه في الصميم، ذلك هو تفسيره القرآن الكريم

في مجلته «الهداية» بطريقته التي حببت إليّ وأنا طالب بدار العلوم الاطلاع الواسع على تفسير كتاب الله.

كنا نتلقى درسا في الأسبوع في تفسير القرآن، ولكنه كان على الطرق المدونة في كتب التفاسير، ولما ظهرت مجلة الهدايا رأينا بها طريقة جديدة في التفسير، تساءلنا – وقتئذ – عن هذه الطريقة الحديثة الجذابة الخلابة، وكيف استطاع الشيخ أن يجعلها طريقته في هذا الركن الأكبر من أركان الدين الإسلامي، فكان جواب أساتذتنا بالمدرسة أن سبب استطاعته هذه هو أنه تأثر بالأستاذ الإمام في تفسير القرآن، وسار على طريقته في أن القرآن الكريم هو الأساس والغراس لمعرفة أسرار الحياة كلها وأنه الأصل الذي يرجع إليه في كل إصلاح، إن لم يكن بالنص فبالتوسع في تفسيره توسعا ينتظم شئون الحياة جميعا، لأنه أنزل لهذه الأغراض الطيبة، فتفسيره يجب أن يكون في هذه الاتجاهات المثليات.

لو جُمع من تفسير القرآن ما تفرق في «الهداية» في كل ما صدر من أعدادها لكان كتابا مستقلا في تفسير بعض أجزاء الذكر الحكيم، ولذلك سوَّغت لنفسي أن أعد ما فسره الشيخ من القرآن في مجلته، هو من باب التأليفات العلمية. أما وقد جاء ذكر هذه المجلة التي كانت من مكنوناتي الأدبية وأنا طالب بدار العلوم، فلأذكر عن التعريف بها قليلا من كثير.

رأى الشيخ أن السيد رشيد رضا يصدر مجلة «المنار» وكان يعرف طبعا أن الذي أوحى إلى الشيخ رشيد بإصدارها، وساعده بكل أنواع

المساعدة، هو الإمام محمد عبده، فلماذا لا يصدر هو أيضا مجلة من نوع «المنار» تؤدي رسالة واسعة في العلم والمعرفة والإصلاح، وعنده من التأهيل العلمي ما قد يفوق – في اعتقاده – ما عند الشيخ رشيد.

وبالفعل صدرت المجلة في المحرم سنة ١٣٢٨هـ – فبراير سنة ١٩١٠، وقد جاء في مقدمة العدد الأول منها ما يشعر بالأغراض من إصدارها:

«أما بعد.. فإن من يلقي على أحوالنا نظرة تبطنها أو يجيل فيها فكرا فينفذ شعاعه منها إلى الصميم، يرى آفات فاشية وخرافات غاشية.. وفوضى ممتدة العرق لم يخل لنا منها شأن».

والمقدمة طويلة اكتفينا منها بهذا القدر الذي يدل على اتجاه صاحبها في الإصلاح الذي انتواه بإصدار هذه المجلة «الهداية».. أما أبوابها الثابتة فقد لخصها في المقدمة أيضًا وهي: أسرار القرآن – اللغة والأدب – شذور علمية – الحوادث والأجيال – العالم الإسلامي – التربية والتعليم – أسئلة وأجوبتها – الأحاديث الموضوعية – المنبر العام، وقد استقبلتها جميع الصحف العربية بكل ترحيب وتقدير بعد صدور العدد الأول منها. وقد سد الشيخ بمجلته فراغاً علميًا في البيئة المصرية، ولو أنها استمرت في الصدور لجنينا منها أضعاف ما جنينا.

***

الشيخ المصلح الاجتماعي:

كان الشيخ مجتهدًا في كل ما أسلفت من ألوان علمه ومعرفته، كان مجتهدًا في تأليفه كتاب «الإسلام دين الفطرة» كما كان مجتهدًا في تفسير كتاب الله. والآن أتحدث عنه كمصلح اجتماعي وفقيه مجتهد، فتح لنفسه باب الاجتهاد، اقتداء بالشيخ الإمام. أتحدث في ذلك عن أصل كبير أعطاه الشيخ عناية فائقة، هو إصلاح الأسرة، وأعتقد أن فيه خير أسس الإصلاح الاجتماعي.

الأسرة:

أسلفت أن الشيخ قد تأثر في حياته الفكرية والإصلاحية بالإمام محمد عبده، وكان من أثر هذا التأثير ما نراه له في هذا النوع من الإصلاح. من الأسرة تتكون الأمة كلها، فإذا أصلحت صلحت الأمة، وإذا أدركتها العلل والأمراض ساءت حالة المجموع لأنها الغراس الذي ينبت إما ثمرًا شهيًا، إذا صلحت، وإما شوكا مؤذيًا إذا فسدت لأنه من رجال العلم والتعليم، وها هو الشيخ يعالج هذه المشكلة التي لا يشك في أنها هي جميع مواد البناء لشعب قوى متين.

في سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م عقدت الحكومة المصرية مؤتمرًا بمصر الجديدة ليدلي كل من القادرين على الإدلاء برأيه في الإصلاح العام، خطب في هذا المؤتمر أفذاذ مصر ومفكروها كل فيما وقع عليه اختياره، فماذا كان نصيب الشيخ في هذا المجال الحيوي؟ إنه اختار

الإصلاح الاجتماعي حديثا له وقال فيه خطبة طويلة لا أريد أن أثبتها كلها كما أثبتُّ خطبته في التعليم، وإنما أثبت منها ما يدل على مجموعها دلالة كافية بما اختاره هو موضوعا لها محددًا فيه ناحية خاصة رآها هي أجدر الاختلالات الاجتماعية بالإصلاح، هي موضوع إصلاح الأسرة وهو الذي نشكو منه مُرَّ الشكوى إلى يومنا ما دام متروكا بغير إصلاح كامل. وقد تحدث فيه الشيخ منذ قرابة ٥٠ عامًا، أيام كان التحدث الناضج في الإصلاح الاجتماعي غير ميسر إلا للفاقهين.

وضع الشيخ عنوانًا لخطبته هو عنوان يدل على ما في الخطبة من اجتهاد، ومن اتجاهات إصلاحية، ذلك العنوان هو «وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق أحكام الشريعة الغراء"؛ فالشيخ قد عالج في هذه الخطبة الإصلاح الاجتماعي بما في الشريعة الإسلامية من أصول تعين المصلح على استنباط الأحكام الشرعية الصالحة لكل زمان ومكان، والشيخ في هذا السبيل كان يسير في خطبته على سنة الأئمة المجتهدين، وبخاصة مذهب الإمام أبي حنيفة الذي أعرف أنه جعل الاستنباط من القياس أصلا قويًا من أصول مذهبه الواسع الانتشار.

قال الشيخ في ذلك: «إن للمسلمين قوانين شرعية هي مناط الأحكام ومآخذها.. وقد لاحظ المشرع أنه سيجد للناس قضايا بمقدار ما يجد من الضرورات والحاجات، ولذلك وضع قوانين كلية جعلت مرجع جماعات المسلمين في استنباط ما يناسب طوارئ الضرورة والحاجة من الأحكام.. ويرى الباحث في شئوننا المتعلقة بالاجتماع أننا ننحدر سراعًا

إلى هوة بعيدة الغور.. ولو أننا درنا مع هذه المصلحة في الدائرة التي رسمتها الشريعة لأمنَّا هذا المصير ولم نقع فيما نحن واقعون فيه.. إن رعاية الأصلح قاعدة شرعية تكاد حكمتها تلمس بالأيدي فإن فيها من دفع المفسدة عن الأمة ما لا يخفى على أولي النظر الصحيح.. لقد سنت شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضرار.. فيقول أبو بكر الصديق: "الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا فإن أعياه أن يجد فيه سنة من رسول الله جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمعوا رأيهم على أمر قضى به، وكذلك كل عمل يفعل ذلك فإن أعياه أن يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه قضاء لأبي بكر فإن وجد قضى به وإلا دعا رءوس المسلمين فإذا اجتمعوا على أمر قضى به».

هذا كلام في صميم الشريعة الإسلامية في الإصلاح العام وانطباق أصولها على ما يتفرع من هذا الإصلاح في كل زمان ومكان، أما ما حدد به الشيخ موضوعه الذي هو جزء من الإصلاح العام فقد قال فيه: «اكتفي بأن أعرض مظهرا من هذه المظاهر ولنا أن نقيس عليه ألا وهو مظهر الحياة الزوجية وما قيدت به من الأحكام التي قد تنافي في الواقع الحاضر المصلحة العامة منافاة لا ينبغي السكوت عليها مع وجود المخارج الكثيرة من هذا الحرج إذا نحن رجعنا إلى كثير من علماء المسلمين السابقين.. وإنما آثرت عرض هذا المظهر على غيره لأنه قريب التناول من الأذهان ويكاد يكون موضع شكوى كل إنسان.. إن هذه الجهة من جهات حياتنا الاجتماعية محفوفة بصنوف العنت والأذى التي ما كان

ليكون لها وجود لو قدر مستنبطو بعض أحكامها كل ضرورة بقدرها وجعل لكل ذريعة سدًا ولكل حاجة حكما».

ثم يخرج التعميم إلى التخصيص، فيتحدث عن نوع خبيث من الزوجية ذات اللف والدوران، والإيقاع بذوات الثراء من النساء، ويصور ذلك بأن كثير من الرجال المحتالين همهم في الحياة الإيقاع بذوات النعمة باسم الزواج، يتظاهرون بالجاه والثروة، فإذا استهوى أحدهم امرأة وعقد لها عليه، ينقلب مضاربا بما في يده من عصمتها، يساومها على قدر ما لها تفتدي به نفسها، مهددًا إياها – إذا هي لم تجبه إلى مطامعه – بأن تبقى معلقة، لا متزوجة ولا مطلقة.

ثم يتحدث عن الطلاق الثلاث، بما أخذت به التشريعات الآن، بعد عصر الشيخ بأزمان، من أنه لا يقع إلا طلقة واحدة، ويبدو أن الشيخ أول من رأى هذا الرأي، وإذا كان أحد رآه قبله فإنني لا أعرفه.

ثم يتحدث عن الإعسار يدرك الزوج، والعوز يلحقه، فلا يجد ما يطعم به زوجته، ويرى أن التفريق واجب بينهما في هذه الحالة، فعسى أن ترزق الزوجة بمن يقوم بإعاشتها، لأنها لو ظلت مع هذا الزوج فهي سريعة الانحدار الخلقى لتسد جوعتها بنفسها.

ثم ينتهي إلى نتائج بعد تطوافه الطويل في خطبته، هي:

١- لا ضرر ولا ضرار.

٢- الضرورات تبيح المحظورات.

٣- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.

٤- يختار أهون الشرين.

٥- درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

٦- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.

٧- الأمر إذا ضاق اتسع.

٨- الضرورات تقدر بقدرها.

٩- لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان.

ثم يخاطب الحكومة بقوله: «دعونا نذكر ما ينجم من المفاسد التي تهدد نظام الاجتماع بالانحلال إذا كثر مثل من ضربناهم مثلا من المتزاوجين، وسادت في المزاواجات هذه الألاعيب، اذكروا ما يصيب الأخلاق والأمن، وهما من أخص العناصر في تركيب الاجتماع من جراء هذه المشاحنات والبليات، اذكروا ما يصيب البنين الذين ينشئون في حجور أولئك الأزواج.. اذكروا ما يعود على الأمة من الضعف الأخلاقي العام من بناتها العابثات وبنيها العابثين.. اذكروا أن مستوى الأمة الأدبي إنما يقل بكثرة وجود أمثال هؤلاء الأزواج الذين يجنون على الأوساط التي يترعرعون فيها.. اذكروا ذلك كله تقدروا معي سبيل الحاجة إلى مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق أحكام الشريعة الغراء».

كما يرى الشيخ أن مبدأ التحكيم بين الزوجين لازم إذا ساءت العشرة بينهما، وقد نقل من أحد مفسري كتاب الله الكريم العلَّامة «ابن كثير» أنه قال في تفسيره «إن العلماء أجمعوا على أن الحكمين بين الزوجين لهما الجمع والتفرقة، وذلك أخذًا من قول القرآن الكريم: «فإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحًا يوفق الله بينهما».

واختتم الشيخ خطبته بقوله: «هذه صورة لإحدى نواحى حياتنا الاجتماعية عرضتها لأن الخطب فيها عام، لا تخلو من قرية صغيرة، ولا مدينة كبيرة».

الشيخ المجاهد

جرت العادة أن نصف بالجهاد من لهم مواقف في الوطنية، وتحملات قاسية في سبيل الحرية، وعندي أن هذا تخصيص بلا مخصص، فيه بعض التضييق، لأن المصلح الاجتماعي مجاهد، والمصلح الديني مجاهد،

والمصلح العلمي مجاهد، جهادا يختلف في مقدار ما يصادف المصلح من اعتساف أو لين، ومن يسر أو عسر، ومن معونة من أهل عصره أو تنكر له؛ فليس المجاهدون السياسيون الأحرار هم الذين لاقوا الشدائد وحدهم، وإنما التقى بها كثيرون من المصلحين في الدين كالإمام محمد عبده الذي رمي من الجامدين بالإلحاد، والفسوق عن الدين، وكالشيخ عبد العزيز جاويش، فإنه أيضا رُمي بالكفر الصريح.

إذن الشيخ في كل أطوار حياته المملوءة إنسانية وإصلاحا، مجاهد مصلح لا يتهيب، وقد ناله من جراء ذلك النصب والعناء، وقد أسلفت الأحاديث عن جهاده الإصلاحي في غير الميدان السياسي.

أتحدث الآن عن الشيخ المجاهد السياسي، الصحفي، المضطهد المسجون، المبعد عن بلاده حد عشر عامًا، والحديث عن هذا الطور من أطوار حياة الشيخ حديث طويل، أقسمه إلى أقسام أصيلة متتابعة.

***

تلخيص:

لخص أكبر أبناء الشيخ «ناصر جاويش» حياة أبيه، وقدم بها لكتاب والده «الإسلام دين الفطرة» طبعة دار الهلال، بعنوان "المؤلف في سطور" أترك منها الآن نشأته الأولى التي تحدث عنها في ابتداء الكتاب، من المولد إلى التخرج إلى احتراف التعليم، إلى عودته الثانية من إنجلترا، وأثبت فيها حياة الشيخ السياسية الحرة، التي بدأت من سنة ١٩٠٨ بعد استقالته من وظيفته.

هذا التلخيص هو المرآة الصغيرة التي ترى فيها حياة الشيخ بأوجز وجازة، وعلى ضوئها سأسير في كتابة هذه الرحلة الكبرى للشيخ. «قال ناصر»:

- رأس تحرير جريدة اللواء في ٢ مايو سنة ١٩٠٨.

- قدم للمحاكمة أمام محكمة عابدين سنة ١٩٠٨ في قضية الكاملين لنشره مقالا تحت عنوان.. «دنشواى أخرى في السودان» وقد حكم عليه ابتدائيا وبريء استئنافيا.

- قدم للمحاكمة سنة ١٩٠٩ بسبب نشره مقالا في اللواء تحت عنوان «ذكرى دنشواي» وصدر الحكم استئنافيا بحبسه ثلاثة أشهر.

- في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٠٩ قدم له الشعب وساما في حفل خاص، أقيم في فندق شبرد، تقديرا لوطنيته.

– في فبراير سنة ١٩١٠ أنشأ مجلة «الهداية» لإفهام المسلمين أسرار القرآن «وقد تقدم الحديث عن ذلك».

– أنشأ المدارس الإعدادية الثانوية والليلية لتعليم اللغة الفرنسية وآدابها للأزهريين «وقد تقدم الحديث عن هذا أيضا».

– في سنة ١٩١٠ قدم للمحاكمة بسبب وضعه مقدمة لديوان «وطنيتي» وحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر.

– في سنة ١٩١٢ أبعد الشيخ جاويش إلى تركيا حيث أعاد إصدار مجلة «الهداية» و«الهلال العثماني» و«الحق يعلو».

– في سنة ١٩١٢ تزعم الشيخ جاويش وبعض زملائه أنصار الحزب الوطني جمع التبرعات، وإرسال الذخائر وتهريب القواد الأتراك إلى طرابلس لمقاومة الغزو الإيطالي.

– في سنة ١٩١٣ طلبت الحكومة المصرية تسليم الشيخ جاويش لمحاكمته عن تهمة إرسال منشورات ضبطت مع أحد الطلبة المصريين القادمين من تركيا، وتم تسليمه فعلا للحكومة المصرية وأودع سجن الحدرة، ثم أفرج عنه.

– في سنة ١٩١٤ أنشأ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ووضع أساسها، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين بالقدس الشريف وعهد إليه بإدارتها.

– في سنة ١٩١٤ سافر الشيخ جاويش إلى إنجلترا حيث اتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامي، وأثناء ذلك حصل اعتداء

على الخديوي عباس حلمي بالأستانة فشعر بأن السلطات البريطانية تنوي القبض عليه لاتهامه فيه فاختفى وتمكن من الهرب إلى باريس.

- في سنة ١٩١٥ أعدت حملة من الجيش التركي لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزي، واشترك فيها الشيخ جاويش وبعض رجال الحزب الوطني الذين تمكنوا من السفر خلسة بعد إعلان الحرب.

- وفيما بين سنتي ١٩١٥ و١٩١٨ كان يتنقل ما بين ألمانيا وتركيا والشام، وقد أنشأ مجلات إحداها تصدر باللغة الألمانية باسم **Die Islamische Welt** وثانية في إسطنبول باللغة العربية باسم «العالم الإسلامي» وفي سويسرا مجلة باسم **EGYPTE** بالاشتراك مع رجال الحزب الوطني للدفاع عن استقلال مصر من مجلس المبعوثين بالآستانة والريخستاغ بألمانيا في عام ١٩١٧ كما اشترك في مؤتمر الدفاع عن الأمم المهضومة الحقوق في استكهولم.

- في سنة ١٩١٨ غادر الشيخ جاويش ومعه رجال الحزب الوطني تركيا خفية بعد انتهاء الحرب، إلى ألمانيا عن طريق روسيا، ثم سويسرا، حيث قاموا بالاتصال بالوفد المصري بباريس وقدموا له مذكرة بما قاموا به في أوروبا.

- في سنة ١٩٢٢ استدعاه الغازي مصطفى كمال باشا، وعيَّنه رئيسًا للجنة الشئون التأليفية الإسلامية بأنقرة.

- وفي سنة ١٩٢٣ حصل خلاف بينه وبين الغازي مصطفى كمال في شأن إلغاء الخلافة وكان الدستور قد أعلن بمصر فحاول العودة للوطن، وتمكن من العودة إلى مصر خفية في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٢٣،

ونشرت جميع الصحف مقالا تحت عنوان «تجديد العهد» بتوقيع الشيخ جاويش، وبعد عشرة أيام صرحت الحكومة للشيخ جاويش بالإقامة بمصر وكان يتولى الوزارة وقتذاك يحيى إبراهيم باشا. «وقد أسلفت الحديث في هذا الخطاب».

- في سنة ١٩٢٥ عين مراقبا للتعليم الأولي بوزارة المعارف العمومية وقام بإصلاحاته المعروفة.
- في ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ توفي رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد والوطنية وسنه لا تتجاوز الثالثة والخمسين.

زيادات وتعليقات

إن ما كتبه السيد ناصر جاويش عن والده هو وقائع ملخصة ومفيدة في موضوع ترجمة أبيه في منافيه، وأزيد عليها في ملخص حياة الشيخ ما وجدته في بعض المراجع، ومن ذلك ما رواه عنه أمير البيان شكيب أرسلان في تعليقاته على كتاب "حاضر العالم الإسلامي" ص ١٢٤ من الجزء الأول.. من أن الشيخ جاويش كان أثناء إقامته بالأناضول يقوم بوظيفة كاتم السر للمسلم الكبير الشأن السيد السنوسي، وكان يكتب له كل ما يحتاجه من تقريرات أو مدونات، ومن ذلك أن السيد السنوسي عهد إليه بتنقيح شروط الصلح التي قدمها الطليان في حروبهم مع دولة الأتراك، المعروفة بحرب «طرابلس الغرب» وكان للسيد السنوسى رأي كبير في وضع هذه الشروط بما كان له من الاعتبار الكبير عند الأتراك حكومة وشعبا.. ولأن الحرب كانت في بلاده

الأصلية «طرابلس الغرب» التي كان أخوه السيد محمد المهدي ملكا عليها يومئذ.

جاء في كلام السيد ناصر عن والده ذكر لقضية تعرف بقضية "المنشورات" ولم يفصل فيها شيئًا، وقد وقفت على بعض تفصيل لها هو أن الذي كان يحمل المنشورات من تركيا إلى مصر شاب مصري اسمه «أحمد مختار» وكانت المنشورات طعنًا في حكومة مصر القائمة يومئذ برياسة «محمد سعيد باشا» وقد وقع للشيخ جاويش من جرائها ما ذكره ولده.

جاء أيضا في كلام السيد ناصر، أن والده اتهم في قضية الاعتداء على الخديوي عباس في تركيا سنة ١٩١٤ ولما شعر بأن السلطات البريطانية ستقبض عليه – وكان يومئذ في إنجلترا – فر إلى باريس، وأزيد على ذلك أن اتهام الشيخ جاويش بالتحريض كان من الخديوي نفسه، لأنه كان يسيء الظن به إلى أبعد الحدود، ويحدثنا أحمد شفيق باشا صاحب «مذكراتي في نصف قرن». يحدثنا في كتابه «أعمالي بعد أقوالي» بأن أحد المصريين سعى في الصلح سنة ١٩١٧ بين الخديوي عباس وبين الشيخ، وقد أقام له الخديوي مأدبة غذاء ومع هذا ظل يحس بأن الشيخ ليس مخلصا له.

ومن الزيادات أيضا على ما قاله ولده، أن الشيخ جاويش اتهم بالتحريض على الاعتداء الذي وقع بمحطة مصر على سعد زغلول باشا في ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٢٤ وهو مسافر إلى إنجلترا للمفاوضة في

القضية المصرية، وقد سئل في ذلك كشاهد – أحمد شفيق باشا السالف الذكر كما روى في كتابه «أعمالي بعد أقوالي» هل كان الشيخ عبد الله جاويش يأخذ مرتبا من الخديوي أيام كان بمصر، فكان جواب شفيق باشا بالنفي المطلق وأن الخديوي كان يتهمه بالتحريض على الاعتداء عليه.

ومن الزيادات أيضًا على ما قاله ولده، أن الشيخ وأعضاء الحزب الوطني لما علموا بأن وفدا قام من مصر إلى باريس سنة ١٩١٩ للمفاوضة في القضية المصرية مع مؤتمر السلام، أرسلوا مذكرة إلى هذا الوفد يقفونه فيه على جهودهم في أوروبا لحل القضية المصرية، ولذلك ليستنير الوفد المصري بآرائهم باعتبار أنهم منفيون في أوروبا زمنا طويلا ويعرفون ما لا يعرفه غيرهم من الاتجاهات نحو حل القضية المصرية.

هذه لمحات تلخص لنا حياة الشيخ السياسية، وبعدها أفصل القول في هذه الرحلة الكبرى من تاريخ الشيخ السياسي المجاهد.

٣– الميدان السياسي:

عرفت من الخلاصات التي تقدمت أن الشيخ بدأ عمله في الميدان السياسي الصحفي من اليوم الثاني من فبراير عام ١٩٠٨، فكيف كان حال هذا الميدان؟

كانت كلمة «الوطنية» في عهد الشيخ كلمة مخوفة، لا يسلك طريقها إلا أحرار النفوس، وأباة الضيم، ولذلك كان يضع الشعب هذا الصنف من رجال هذه الوطنية في موضع الهامة من الإنسان، لأنه كان

يرى فيهم صورة فدائية بالمال والراحة والطمأنينة، بل وبالحياة إذا اقتضى الأمر، ولذلك كانوا قلة يعدون عدا، إنهم في عهدهم هم الزعماء والقادة، وما أقل عدد الزعماء في كل عهد. في هذا الطور من حياة الوطن كان الإنجليز على أشد قسوتهم في معاملة الوطنيين بمختلف أساليبهم. كان «لورد كرومر» هو العميد الإنجليزي، وكان هو الحاكم المطلق، الآمر الناهي، دون أن توقف أوامره ونواهيه أية قوة، حتى سلطة حاكم البلاد، الخديوي عباس، الذي كان بحاجة قصوى إلى إسناد تخفف عنه وطأة هذا العميد.

اتخذ الخديو لوقايته – إلى حد ما – بعض الوقايات:

أولا: جريدة المؤيد التي كانت تناصره من المبدأ إلى المنتهى.

ثانيا: الإمام الشيخ محمد عبده، وقد كان على صفاء أول الأمر مع الخديوي الذي كان يعمل بمشورة الشيخ إذا تأزمت الأمور بينه وبين العميد، كما وقع في مسألة قاضي القضاة التركي الذي أراد العميد إلغاء وظيفته، وقطع الصلة القضائية بين مصر وتركيا، وتعيين قاضي قضاة مصري بدله، ولم يجد الخديوي إلا أن يأخذ رأي الإمام الذي أفتاه بأن يقول للعميد: "إن وجداني لا يسمح بأن أغير رئيس الأمور الشرعية، لأن ذلك من حق السلطان الذي هو خليفة المسلمين"، ولما التقى الخديوي بالعميد ذكر له الخديوي كلمة «الوجدان»، فاقتنع، وأقلع عن عناده، وهذا مثل من أمثلة أنقذ فيها الإمام بثاقب رأيه، الخديوى من استبداد العميد البريطانى «الجزء الأول من تاريخ الأستاذ الإمام ص ٥٧٦».

ثالثا: مصطفى كامل وبعده محمد فريد والحزب الوطني كله، فلقد كان الخديوي يعتمد على ثورة مصطفى كامل في تخفيف حدة العميد عليه، ويتخذ منها سلاحًا أمام العميد، لأن مصطفى رجل الشعب وثائره، فإذا انضم إلى كفة رجحها ولو بعض الترجيح.

استمرت السياسة على هذا اللون إلى أن وقعت حادثة «دنشواي» التي أطاحت بالعميد، وكانت سببًا بعد صيت مصطفى كامل، في توفيق الله له في التشهير بسياسة إنجلترا التي تزعم العدالة في حكم مصر، وفي ترقية حال أهلها.

إلى هنا كان الحزب الوطني هادىء البال، وكانوا يصفون عهد كرومر بأنه عهد سياسة الخلاف بين الإنجليز وبين الخديوي، فماذا جدَّ بعد ذلك؟

رأت إنجلترا أن تغير سياستها في مصر فعينت عميدها الجديد «الدون غورست» على هذا الأساس الذي سموه سياسة الوفاق، التي رأى الخديوي بعدها أن يماشي السياسة الإنجليزية على هواها، ما دامت هي على وفاق معه، وكانت هذه السياسة مع الأسف طعنة نافذة في جنب الحزب الوطني، مما دفعت بالزعيم محمد فريد أن يصف الخديوي في أول خطبة له بعد هذه السياسة، بأنه «جبان»

دور سياسة الخلاف بين إنجلترا ومصر، كان يمثله اللورد كرومر من جانب الإنجليز، ويمثله الحزب الوطني من جانب المصريين، وقد انتهى

باقتلاع الطاغية العنيد، وقد كان الخديوي في هذا الدور صديقًا لرجال الحزب الوطني كما أسلفت.

هناك دور آخر يسمونه في لغة السياسة «دور الوفاق»، فما حقيقة هذا الدور وما أغراضه؟

لقد كان التصرف في اقتلاع اللورد كرومر من حكم مصر تصرفا قصدت به إنجلترا تهدئة الخواطر الهائجة ليس غير، فهو عمل لذر الرماد في العيون لا أكثر، حتى يقال إنها عادلة في تصرفاتها.. ولذلك أوعزت إلى ممثلها الجديد «السير الدون غورست» – الذي جاء بعد لورد كرومر– بأن يتظاهر بمظهر الوفاق مع الخديوي وألا يقف منه موقف العناد كما كانت السياسة أولا، وقد نفذ هذا العميد الإنجليزي ما أوحت به إليه دولته، فعرف هذا العهد بعهد الوفاق مع حاكم مصر.

كان هذا الوفاق مخدرًا وقتيا لم يلبث أن صحا القوم من تخديره، وإذ به حكم إرهاب كما كان سابقه، والفرق بينهما إنما هو في الأسماء المنتحلة، والصفات المزبفة، لا في الحقيقة والواقع، فإن الوطنيين أمثال الزعيم محمد فريد، ومحرر صحف الحزب الوطني الشيخ عبد العزيز جاويش، وبقية هيئة هذا الحزب المحترم، لم يذوقوا ألوان الاضطهاد بصورة بشعة إلا في هذا الدور، فقد كان من نصيب محمد فريد والشيخ جاويش السجن ثم الإبعاد، وكان من نصيب أكثر بقيته الاعتقالات المستمرة، وقد ظهر مع الأسف أن الخديوي قد اطمأن إلى هذه السياسة، لأنها لم تكن تقف في سبيل أغراضه كما كان يقف اللورد كرومر من

قبل، وقد ترك الوطنيين يذوقون ألوان العذاب وهو يرى وينظر دون أن يمد لهم يدا، ولذلك وقعت الجفوة بينه وبين الشيخ جاويش من هذا العهد، وقد أسلفت الإشارة إليها باتهام الخديوي، الشيخ، بأنه من المحرضين على الاعتداء عليه بالآستانة، وبأنه لا يزال منه على حذر حتى بعد أن توسط أحد المصريين بينه وبين الشيخ في الصلح سنة ١٩١٧ وهما معا بتركيا، وبعد أن أدى له الخديو مأدبة غداء ظن الخديو بعدها أن قلب الشيخ قد صفا له، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك كما سلف بيانه.

هذه هي الوطنية في هذه الحقبة، وهذه صور ما لاقاه رجالها من سياسة الوفاق التي كانت أشد وطأة على زعماء الوطنية من سابقتها، سياسة الخلاف، وبالإيجاز فقد كانت هذه سياسة الإنجليز في مصر في هذا الظرف العصيب.

في هذا العهد الحافل بالاضطهادات ألقى الشيخ عبد العزيز جاويش دلوه في دلاء الوطنية، فكان من شأنه ما سأقصه:

***

٤- اختيار الشيخ

استخلف الحزب الوطني الشيخ ليحل محل مصطفى كامل في تحرير جريدة «اللواء» ولي هنا وقفة أمام هذا الاستخلاف الذي أحدث دويًا كبيرًا في وقته لغرابته على الملأ المصري يومئذ من كل نواحيه، فأولا أن الوظائف الصغرى كانت تعبد ويعض عليها بالنواجذ، فما ظننا بوظيفة

كبرى هي وظيفة المفتش الأول للغة العربية، ما ظننا بها وقد تركها صاحبها لا أقول مختارًا وحسب، بل تركها برغبة أكيدة بينها في أول مقال له باللواء، كما بين كثيرا من مراميه في هذا المقال الذي سأثبته فيما بعد، ثانيا أن اختياره لهذا العمل الأكبر بعد الزعيم الأول ليحمل الدلالة القاطعة على ما كان للشيخ من تقدير وطني وأدبي معًا في وقت كان فيه الحزب الوطني هو حزب الثقافات العلمية، وحملة الأقلام الوطنية، ومؤسس الندوات السياسية، وصاحب الدراسات الفائقة لقضية مصر، بل وقضية المسألة الشرقية.. وإذن ما هي عوامل هذا الاختيار الغريب في بابه ووقته؟.

الحديث في مثل هذه المسائل الحساسة لابد أن يُرد إلى أقوى مراجعة ثقة وأحفلها صدقا، ولا أرى في مراجعي في هذا الشأن ما هو أفضل من قول كابر جليل من رجال الحزب الوطني منذ شبابه هو الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في كتابه «محمد فريد ص ٥٦»:

«في منتصف سنة ١٩٠٨ اختار الفقيد «محمد فريد» لرياسة تحرير «اللواء» المرحوم الشيخ عبدالعزيز جاويش، وكان قد تعرف به لأول مرة في مؤتمر المستشرقين بمدينة الجزائر سنة ١٩٠٥، وعرفه بمصطفى كامل سنة ١٩٠٦ بباريس، فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية، فلما رأى أن اللواء في حاجة إلى رئيس تحرير كفء لهذه المهمة عرضها على الشيخ عبد العزيز جاويش وكان وقتئذ مفتشًا بوزارة المعارف فقبلها وبدأ يكتب في اللواء يوم ٣ من مايو سنة ١٩٠٨».

لي هنا وقفة كذلك في قول الأستاذ الرافعى «فتمكنت بينهم أواصر الصداقة والميول الوطنية» فإن هذا التعبير من هذا الأستاذ الخبير ليدل بأوضح الدلالات على أن الشيخ وهو موظف كان على صلة كبرى بالوطنية ورجالها الأعلين، بل إنه كان من رجالها فعلا منذ هذا التعارف، وأبريء فكرى من الشطط إذا أنا جزمت بأنه كان بين الشيخ وبين الزعيمين مقابلات سرية، في الوقت الذي كان يتبرأ الموظف من ابنه إذا هو سلك سبيل الوطنية، ومحبة الوطن، محافظة منه على وظيفته التي هي أداة عيشه الرتيب، الشيء الذي صبغ الموظفين يومئذ بصبغة العزلة والانقباض عن كل ما يشتم منه ريح الوطنية، وأتم حديثي في وقتي هذه بكلمة «كفء» التي جاءت في كلام الأستاذ الرفاعي كصفة لازمة لمن يخلف مصطفى في تحرير لوائه، بحث عن صاحبها محمد فريد فلم يجدها إلا في الشيخ عبد العزيز جاويش، والآن لا غنى لي إطلاقا عن أن أثبت هنا أول مقال للشيخ في اللواء لنعرف منه المعاني الكبرى التي احتواها، مما يعد من مفاخر الشيخ، وبالإجمال فإن هذا المقال من ملهمات الشيخ، مما تفيد قراءته ناشئتنا كبريات الفوائد علمًا وخلقًا وتاريخا وطنيًا، وهذا نصه «اللواء ٣ من مايو سنة ١٩٠٨»:

«بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة، ومطيتها الدهان والتلبيس، في أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس بزيوف الفلوس، وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرءوس، وبيمينك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة، حياة الصراحة في القول، حياة الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد

العزيزة، أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج بلغت فيها ذلك المنصب الذي كنت فيه ما بين محسود عليه، ومرجو فيه، أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر منبريا في ميدانها، فإما إلى الصدر، وإما إلى القبر، موقنا بما أعد الله لعباده العاملين المخلصين من الظفر والفتح المبين عارفًا أن:

الحي لا يموت إلا مرة.. والموت أحلى من حياة مُرة

وكيف لا نقدم من أنفسنا قرابين بين أيدي أهرام هذا القطر ونيله، أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغال في سبيل تحريره، وقطع اليد الغاضبة له جزاء بما كسبت، فلنتمسك بذلك المبدأ الشريف ما حيينا، ولنتسم به ما بقينا، ولنرفع أصواتنا حتى نطرق بها أبواب السماء، فنستنزل المقت والسخط على من دخلوا بلادنا، وقبضوا بأيدي جبروقم على نواصينا، واستخدموا في سبيل إصابة غرضهم أفراداً إذا ما لقوكم قالوا إنا معكم، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم، وما كانوا مهتدين.

سيسير اللواء كما كان عليه، خادمًا للأمة المصرية، مجاهدا الإنجليز ما بقوا في بلادنا، حاثًا على الفضيلة والأخلاق الكريمة، داعيًا إلى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها، وتباين مشاربها ولهجاتها، فاللهم أسألك لسانًا ناطقًا بالصواب والحكمة، وقلمًا لا جولة له في ميادين القحة، ولا علم له بمعاهد الفحش والسباب، فما أحوج الأمة إلى كلمة

حق يستمعونها، وجميل عظة يلونها، وما أقمن الجرائد أن تتضامن وتتعاون على البر والتقوى، وما أخلقها أن تجتمع حتى تكون يدًا واحدة على أعدائها يحذرونها ويخشون بطشها، وما أحراها أن تعلم أنها بتفرقها وتخاذلها إنما تشمت عدوا مبينا، وتكمد صديقًا شفيعا، فأرسل اللهم على قادة هذه الأمة ومرشديها من عندك روحًا يجمع شتيتها، ويوَّحد كلمتها ويعصم أقدامها من الزلل، وآراءها من الخطأ.. آمين».

***

٥- محاكمات الشيخ:

استمر الشيخ في رياسة تحرير صحيفة الحزب الوطني من أول مايو سنة ١٩٠٨ إلى فبراير سنة ١٩١٢ على سنته هذه التي ترجم عن كتبها هذا المقال، وكانت هذه كلها محاكمات جنائية انتهت به إلى غيابات السجن، ثم إلى النفي والتشريد.

بدأت محاكمات الشيخ من أول سنة رأس فيها تحرير «اللواء» أو بالتعبير الأدق بعد شهر من عمله؛ فقد قدم لأول محاكمة في شهر يوليو سنة ١٩٠٨ في قضية عرفت باسم قضية «الكاملين» خلاصتها أنها وقعت في بلدة الكاملين بالسودان ثورة برياسة زعيم يدعى الشيخ عبد القادر.. فجردت عليه الحكومة قوة من الجيش نكلت بالثائرين وقتلت عددًا كبيرًا منهم وقدمت الباقين للمحاكمة فصدرت عليهم أحكام مختلفة منها الإعدام.. وقد نشرت «اللواء» هذه الأنباء تحت عنوان «دنشواي أخرى في السودان» فعدت الحكومة هذا النشر إهانة لوزارة

الحربية واتهمت الجريدة بأنها بالغت في نشر الخبر.. وقدم الشيخ إلى المحكمة فحكمت ببراءته، وهذه هي المرة الوحيدة التي بريء فيها الشيخ.

كتب الشيخ مقالة في اللواء بعنوان «ذكرى دنشواي» في ٢٨ يونيه سنة ١٩٠٩ ندد فيها بالقاضيين المصريين اللذين كانا من قضاة دنشواي «بطرس غالي باشا رئيس المحكمة المخصوصة، وأحمد فتحى زغلول باشا أحد قضاتها» فحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر ونفذ هذا الحكم فور صدوره، فما كان موقف هذا الشعب الكريم إزاء هذا الحكم، وبأي شيء حكم هذا الشعب على الشيخ بعد الحكم بسجنه، إن لذلك قصة وطنية طريفة جد الطرافة.. تلهمنا وعي هذا الشعب المصري الذي بلغ يومئذ درجة كبرى في النضج وتكريم الزعماء.

ارتفع الشيخ إلى قمة الزعماء في نظر الشعب وصار في صفوف الزعماء الأعلين.. وفي ذلك يروى لنا شاهد عيان هو المغفور له الأستاذ علي الغاياتي في تعليقاته على ديوانه «وطنيتي» طبعة سنة ١٩٤٧ ص ٧٩، ما يأتي:

في يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ١٣٢٧– أغسطس سنة ١٩٠٩ أي بعد الحكم على الأستاذ بخمسة أيام قامت مظاهرة وطنية كبرى بحديقة الأزبكية في الساعة الخامسة مساء، وكانت مظاهرة استياء من الحكم وانعطاف على السجين الكريم، وألقيت فيها الخطب المناسبة واقترح عمل وسام يشترك فيه الشعب يسمى «وسام الشعب» ليتقلده الأستاذ يوم خروجه من السجن في احتفال حافل، فتهافت الناس على

الاكتتاب وتألفت لجان في سائر البلاد باسم «لجان الوسام» ومازال باب الاكتتاب مفتوحا حتى تم صنع الوسام على أجمل شكل، وقلده الأستاذ يوم خروجه من سجن الحرية في حفلة شائقة أقيمت لتكريمه بفندق شبرد في الساعة الرابعة والنصف من مساء ذلك اليوم المشهود، وكانت الشوارع المحيطة بالفندق غاصة بالقادمين والمتظاهرين محيين الأستاذ متيمنين بطلعته، وصادف في تلك الساعة أن مر من أمام الفندق سمو ولى العهد، ثم سمو والده الأمير عائدين من سراي عابدين إلى سراي القبة، وقد رأيا انعطاف الأمة بأسرها على خادمها الأمين، وهتاف الجماهير له بالدعاء والحب الصميم، أما هذا اليوم العظيم يوم خروج الأستاذ من السجن والاحتفال بتكريمه فهو يوم الاثنين ٩ من ذي القعدة سنة ١٣٢٧- ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٩». هذه قصة «وسام الشعب».. فماذا كان هذا الوسام وما أوصافه، يحدثنا في ذلك السيد علي الغاياتي في ديوانه السالف الذكر ص ٨١ بما يأتي:

جاء هذا الوسام آية من آيات الوطنية الدالة على فضل الأستاذ بأجمل معنى وألطف إشارة، وهو مؤلف من ثلاث قطع ذهبية، نقش على الأولى رسم الأهرام، وكتبت تحت الرسم هذه العبارة «تذكار الشعب إلى الشيخ عبد العزيز جاويش اعترافا بوطنيته الصادقة» والثانية وهي أكبرها حجما رسم عليها نبات كان يتخذه القدماء رمزًا للفوز والنصر، ونقشت فيها هذه الآية الكريمة «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» والثالثة هلال في وسطه نجم، وقد نيطت هذه

القطع الثلاث بوشاح من الحرير الأحمر والأبيض مرصعة كل واحدة منها بالأحجار الكريمة ترصيعًا جميلا».

خرج الشيخ منتصرًا بالشعب الكريم من هذه المحنة، لترميه الحكومة المصرية أو حكومة المحتلين، في محنة أخرى عوقب فيها بالسجن أيضا سنة ١٩١٠.

الشيخ علي الغاياتي صاحب الديوان المذكور، كان من شعراء الحزب الوطني يومئذ، ولما أراد أن يجمع من قصائده الوطنية ما يطبعه ديوانا له، رأى العظيمان محمد فريد بك والشيخ عبد العزيز جاويش أن يلقيا إليه لفتتين كريمتين منهما؛ فكتب كلاهما مقدمة لهذا الديوان كانت سببًا في محاكمة الرجلين وسجنهما، والحديث عن ذلك بالنسبة لمحمد فريد مبسوط في ترجمته التفصيلية بقلم الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي، أما الحديث عن الشيخ جاويش في هذه القضية فهو أنه كتب مقدمة هذا الديوان بعنوان «الشعر والشاعر» ومن عجب أن هذه المقدمة الأدبية البحتة هي التي حبس بسببها الشيخ – ثانيةً – ثلاثة أشهر، وهذا يعطينا صوة مما كان يعامل به الوطنيون يومئذ من حكومات كانت تخدم الاحتلال ليس غير، لتصل بذلك إلى إطفاء الجذوة الوطنية التي أوقدها في الأفئدة مصطفى كامل وخلفاؤه من بعده.. وقد أثبت نص هذه المقدمة فيما سبق، في فصل «الشيخ الأديب».

هذه محاكمات الشيخ، وهذه منزلته عند الشعب بعد خروجه من غيابات السجون.

وأذكر في هذا المقام ما شاهدته بنفسى من تقدير الشعب للشيخ أول ما عرفت منزلة الشيخ في قلوب الشعب أن كنت أشهد أنا وإخواني الطلبة حفل افتتاح العام الهجرى سنة ١٣٢٨هـ -١٩١٠م وإذا بزوبعة شعبية خارج دار التمثيل العربي للشيخ سلامة حجازي سمعناها مدوية قوية ونحن بداخل الدار، ثم صارت تعلو وترتفع إلى أن سمعنا الهتافات تشق عنان السماء بحياة الشيخ عبد العزيز جاويش وتحيته، وما كدنا نحن الذين بالداخل نلمح الشيخ وقد حمله الشعب على أكتافه ليوصلوه إلى داخل الدار حتى أخذتنا نشوة من الفرح بالغة، وهنالك اختلط الحابل بالنابل وتكتل الشعب كله بداخل الدار لتحية الشيخ المحمول على الأعناق. وانطلقت منا الهتافات والتحيات أقوى مما كنا نسمعه خارج الدار، لأننا اختلطنا جميعا وصنا كتلة واحدة امتزجت فيها الطبقات وتكتلت فيها الجماعات، واستمرت هذه الحال طويلا إلى أن تمكن الشيخ من الجلوس في مكانه المخصص له مع أعضاء الحزب الوطني الذي كان من عاداته الحتمية إحياء هذه الذكرى الهجرية كل عام، وكانت من أحفل ذرياته الوطنية خطابة وشعرا، وبعثًا للهمم، وإيقاظًا للأفئدة، وقد كنت أظن إلى ليلة هذا الحفل أن الشيخ مقدر قدره عند المتعلمين وطالبي العلم يومئذ، ولكن الجديد في هذه الليلة هو ما عرفناه من هذا التقدير العام من الشعب للشيخ الكريم.

وكان في النداءات والهتافات ما عرفنا أن الشيخ معروف بكل خصائص المعرفة، مما دلنا كذلك على أن الوعي القومي آخذ في النماء من أيام مصطفى كامل ولاسيما يوم جنازته التي كانت مظاهرها الشعبية

معدومة الند والنظير.. وصدق المثل القائل: إن "يوم موت الأبطال هو يوم ابتداء حياقمم الكبرى"، وقد صدق كل الصدق الرجل العالم المصلح قاسم أمين في قوله: "لقد خفق قلب مصر يوم تنفيذ حكم الإعدام في شهداء «دنشواي» ويوم وفاة الإمام محمد عبده، ويوم وفاة مصطفى كامل".

***

٥- مناهج الأحزاب والصحف:

مناهج الصحف في هذه الحقبة هي مناهج أحزابها التي توجهها، ولذلك أرى أن أثبت – للتاريخ – مناهج الأحزاب، ومنها نعرف اتجاهات الصحافة في هذا الوقت الذي نتحدث عنه، اللهم إلا جريدة واحدة لم يكن لها حزب تترجم عن أغراضه، هي جريدة المقطم لأنها كانت جريدة الاحتلال، وتأييد سياسة الإنجليز. كان عام ١٩٠٧ هو عام ميلاد الأحزاب الثلاثة التي أذكر مناهجها.

أـ الحزب الوطني:

أسسه مصطفى كامل في ديسمبر سنة ١٩٠٧، وهذه مبادؤه:

– استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة.. سنة ١٨٤٠، مع الاستقلال الداخلي عن تركيا.

– إيجاد دستور في البلاد بحيث تكون الهيئة التنفيذية مسئولة أمام مجلس نيابي تام السلطة كمجالس النواب في أوروبا.

– احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التي ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية.

– الصراحة في انتقاد الأعمال الضارة وتشجيع الأعمال النافعة للحكومة المصرية.

– العمل على نشر التعليم على أساس وطني صحيح بحيث ينال الفقراء منه نصيبهم.

– ترقية الزراعة والصناعة والتجارة بما ينهض بالبلاد اقتصاديا لأنها زعيمة الشرق.

– بث الشعور الوطني في الشعب وإفهامه حقوقه الوطنية ودعوته للائتلاف والتآخي بين العنصرين المكونين للشعب «المسلمين والأقباط».

– العناية بالشئون الصحية عامة وبخاصة الطبقات الفقيرة من الأمة.

– بث روح المحبة بين المصريين والأجانب.

– تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية.

– الدعاية لمصر في الخارج ونفي كل شبهة عنها يلصقها بها خصومها.

ب ـ حزب الأمة:

وكذلك ألف حزب الأمة من جماعة الأعيان المساهمين في جريدة «الجريدة» برياسة محمود سليمان «باشا»، وزعامة حسن عبد الرازق «باشا»، ورئيس تحرير هذه الجريدة هو أحمد لطفي السيد «باشا» وهذا هو منهاج الحزب المذكور:

– معاضدة حركة التعليم ونشره بكافة الطرق وجعله إجباريًا في المرحلتين الأوليين.

– الحصول على حق البلاد الطبيعي في الاشتراك مع الحكومة في وضع القوانين والمشروعات العامة وتوسيع اختصاصات مجالس المديريات ومجلس شورى القوانين والجمعية العمومية تدريجيًا إلى إيجاد مجلس نيابي تتحقق فيه المسئولية الوزارية.

– توسيع نطاق الجمعية الزراعية توصلا إلى تقدم البلاد الزراعي وعدم إهمال الصناعة والتجارة والسعي لترقيتهما.

جـ ـ حزب الإصلاح

وكذلك ألف حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية بزعامة الشيخ علي يوسف، وكان وكيله أحمد حشمت ناظر المعارف ولسان حاله جريدة «المؤيد» وهذه هي مبادؤه:

– تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرمانات الشاهانية لاستقلال مصر الإداري.

- الاعتماد على الوعود والتصريحات التي أعلنتها بريطانيا عند احتلال القطر المصري ومطالبتها بتحقيقها مطالبة مستمرة.

- المطالبة بمجلس نيابي مصري يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية.

- أن يكون التعليم الابتدائي عاما ومجانا لينال كل أبناء الوطن منهم نصيبهم.

- أن تكون اللغة العربية هي لغة التعليم في البلاد.

- أن تعطى الوظائف في المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة مع تقليل عدد الأجانب بقدر الإمكان وأن يحل الوطنيون محلهم شيئا فشيئًا.

- أن تكون محاكمة الأجانب جنائيًا أمام المحاكمة المختلطة «١»

٦- السياسة الخارجية:

أجملنا في سيرة الشيخ جاويش في وطنياته المصرية ما أسلفنا، وأرى بعد ذلك أن تعرف سياسته الخارجية نحو ما كانوا يسمونه «دولة الخلافة العظمى» أو الحكومة التركية.. ورأى الشيخ في ذلك هو رأي الحزب الوطني الذي أسسه الزعيم مصطفى كامل، وكان يرى هذا الزعيم المحافظة على هذه الخلافة لا لأنها تحكمنا، ولكن لأنها المظهر الأقوى للإسلام في ذلك الوقت، وفي منهاج الحزب الوطني الذي أسلفته ما يدل

على أقوى بيان، فقد وضع مصطفى في منهاج حزبه «تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية» وقد كان الشيخ علي هذا الرأي كذلك، كما كان بعض ساسة أوروبا من أصدقاء مصر والحزب الوطني على هذا الرأي أيضا ومنهم «مستر بلنت» فقد جاء في مذكراته: «وقد نصحت لهم بأن تكون صلات المصريين بالدولة العثمانية حسنة بوجه خاص وذلك لأن العلاقة التي تربط مصر بالإمبراطورية العثمانية هي في الواقع الضمان الحقيقي لسلامتها من مطامع الإنجليز «١»

كانت هذه هي سياسة ذلك الوقت نحو الدولة التركية، أثبتها لأحيط ترجمة الشيخ بكل ما في الاستطاعة إثباته.

٧- قوميته العربية:

هي القومية العربية التي تنتظم بلاد العروبة والإسلام، وكما أدى الشيخ لوطنه الخاص – مصر – ما استطاعت أن تؤديه الطاقة البشرية، كذلك أدى لوطنه العربي ما قدره له الملأ العربي حق قدره يومئذ، وبماذا يستطيع الشيخ أن يخدم هذا الوطن العام المتنامي الأطراف بأكثر من قلبه الكبير وفكره الناضج وقلمه السيَّال.. لقد سخرها في خدمة «الإسلامية» وإيقاظ مشاعر أصحابها، ودعوتهم إلى الاتحاد، ودعوة العرب إلى الاتحاد هي التي توارثها المصلحون بعضهم عن بعض، لأنها هي السبيل الوحيد لإعادة مجدهم وإرجاع أيامهم. كما وقع الآن بين إقليمي الجمهورية العربية المتحدة، ونرجو من الله المزيد.

لا غنى لي عن أن أثبت من آثار قلم الشيخ في ترجمة حياته، بعض ما كتبه في هذا الشأن، كما أثبت له مثل ذلك فيما تقدم عن قضية مصر. والترجمة تصوير، وخير التصوير ما تعاون فيه المصور والمصور.

قال يصف العالم الإسلامي والاستعمار سنة ١٩١١ بعنوان «العالم الإسلامي في عام» بالجزء الثاني عشر بمجلة «الهداية» في سنتها الثانية:

استهل العام الماضي بعقد محالفة بين إسبانيا ومراكش، ولولا ضغط إنجلترا وفرنسا على المقري وزير حكومة المغرب الأقصى لما تمت هذه المحالفة في شهر فبراير الماضي تلك المعاهدة التي خوّلت امتيازات وحقوقا جديدة من شأنها أن تجعل الجهات الشمالية من مراكش تحت سيطرة الإسبان.

لم يمض على هذه المعاهدة شهر حتى رأينا فرنسا ترسل جيوشها وأساطيلها إلى الدار البيضاء لتوطيد دعائم السكينة والسلام «كما تقول» والمحافظة على أموال وأرواح الأجانب في مراكش ولتثبيت دعائم عرش السلطان عبد الحفيظ. ولقد وقف وزير خارجية فرنسا إذ ذاك في مجلس النواب، وصاح بأن دخول الفرنسيين في مراكش إنما هو تلبية لنداء الإنسانية وإجابة لما يتطلبه العدل والشرف وأنه لا يقصد به بأي حال من الأحوال اقتناص صروح مراكش والعدوان على استقلالها، وإنما الغرض الفرد هو العمل على استتباب الأمن والسكينة في ربوع تلك البلاد والمحافظة على المصالح الفرنسية والأجنبية.

رأينا ذلك العمل الغريب وعجبنا منه لمنافضته مناقضة صريحة لعقد الجزيرة ذلك العقد الذي ضمن كيان هذه الدولة المغربية، وتكفل بحماية استقلالها وحريتها، ولكن الدول الغربية التي عودتنا إبرام معاهدات سرية بجانب المعاهدات العلنية، قد أسرت معاهدات أخرى من شأنها تقسيم بلاد الإسلام فيما بينها؛ ففرنسا وإسبانيا من جهة أبرمتا في سنة **١٩٠٤** معاهدة سرية بمقتضاها تقسيم البلاد المراكشية إلى منطقتين إحداهما شمالية عليها ظل النفوذ الإسباني والأخرى جنوبية تكون مقرا للنفوذ الفرنسي.

وكذلك أبرمت فرنسا وإنجلترا معاهدة سنة **١٩٠٤** بها أطلقت إنجلترا الحرية لفرنسا في مراكش إلا أنها قيدتها بقيود تضمن عدم الاعتداء على المصالح الإنجليزية وعدم بناء قلاع وحصون على الشواطئ حتى لا يمكن الاعتداء على حرية التجارة والملاحة الإنجليزية.

استمرت فرنسا ترسل جنودها وتتوغل في البلاد المراكشية فلم يرق ذلك للدولة الألمانية التي أرسلت مركبا حربيا إلى ثغر أجادير «١» بحجة أن مصالحها ورعاياها في هذه الجهة أصبحت مهددة ولابد لها من حمايتها، فدخلت المسألة المراكشية بذلك في طور جديد لاسيما بعد أن أرسلت إسبانيا جنودها إلى القصر وتقدمت إلى الأمام معتدية بذلك «كما يقول الفرنسيون» على منطقة النفوذ الفرنسي، وقد أوشكت هذه الحالة أن تؤدي إلى حرب بين ألمانيا وإسبانيا من جهة، وبين فرنسا وإنجلترا من جهة أخرى.

إلا أن ساسة الإنجليز أخذوا يتهددون ويتوعدون ألمانيا، فهدأت الحال على أثر ذلك، وعادت المفاوضات بين ألمانيا وفرنسا إلى مجراها بعد أن قطعت مرات عديدة، وقد تمت هذه المفاوضات وأبرمت معاهدة بين ألمانيا وفرنسا من شأنها أن تجعل مراكش تحت حماية فرنسا على أن تأخذ جزءا من أملاك فرنسا في الكونغو.

والذي يستنتج من هذه المعاهدة ومن المخابرات السياسية التي دارت بشأنها أن الدول الغربية لا تظهر مساعدة لدولة إسلامية إلا إذا كانت ترمي لفائدة شخصية تستفيدها من هذا التظاهر. وإن إنجلترا وحدها هي التي كانت تسيِّر الحكومة الفرنسية إبان هذه المخابرات لأن وزير خارجيتها صرح بما يفيد ذلك في ٢٧ نوفمبر الماضي، فإنجلترا إذن هي السبب في ضياع هذه المملكة الإسلامية ضياعا لا يمكن أن تقوم لها قائمة بعد ذلك إلا إذا عمل المراكشيون أنفسهم بعقولهم وأيديهم على الخلاص من الأسر الفرنسي، بيد أن المسألة المراكشية لم تنته حتى الآن، لأن فرنسا وإسبانيا لم تتفقا بعد على تحديد منطقة نفوذ كل منهما ولكن لابد أن تتفق الدولتان عاجلا أو آجلا على اقتسام ذلك السلب الإسلامي العظيم، ويقولون إن من المنتظر أن تطلب ألمانيا من إسبانيا عوضًا عما ستأخذه على النمط الذي اتبعته مع فرنسا، ويغلب على الظن أن إسبانيا ستخضع فتجيب ألمانيا إلى مطالبها وسيكون ذلك في غينيا الإسبانية وبعض الجزر التابعة لإسبانيا، هذه أول ضربة لحقت بالإسلام في غضون العام الفارط.

وبينما كان الناس ينتظرون أن تكون هذه خاتمة مصائب الإسلام، وإذا بإيطاليا انقضت على طرابلس الغرب باغية عادية قاصدة بذلك أن تسد قصبة التنفس الوحيدة الباقية للعالم الإسلامي بإفريقيا ومدفوعة إلى ذلك بيد الدول الغربية لأن فرنسا لا تريد أن ترى الهلال يخفق بجانب مستعمراتها الإسلامية فيستفز نفوس رعاياها المسلمين يوما ما إلى الخروج عن حكمها، كذلك إنجلترا لا تأمن تركيا مادام في استطاعتها أن تضطرها بجنودها الشرقية والغربية إلى تحرير مصر والجلاء عنها، لهذه الأسباب عقد المسيو دلكالسيه في سنة ١٩٠٢ معاهدة سرية بين فرنسا وإيطاليا كان الغرض منها إعطاء طرابلس لإيطاليا مع حفظ الحق لفرنسا في الاستيلاء على بعض الواحات العثمانية المجاورة لتونس والسودان الفرنسي، وكذلك عقدت إنجلترا هي وإيطاليا معاهدة كان القصد منها إخراج تركيا من طرابلس واستيلاء إيطاليا عليها على أن تأخذ إنجلترا بعض الثغور الحربية لتضيفه إلى الأملاك المصرية..

وقد بدأت إنجلترا في تنفيذ هذه الخطة فاستولت على ثغر السلوم ثم أخذت تساعد إيطاليا وتظاهرها ليتم لها ما اتفقتا عليه في تلك المعاهدة؛ فجعلت تضيق الخناق على المجاهدين المساكين من أهل طرابلس أولئك الذين باغتتهم إيطاليا فغزت بلادهم معتدية ظالمة لا تحترم عهدًا ولا ترعى ذمة، على أن لإنجلترا من وراء هذه المظاهرة مأربا آخر أدق وأثمن من مجرد مساعدتها لدولة صليبية ضد الإسلام، ذلك أنها بذلك قد كادت تخرج إيطاليا من دائرة التحالف الثلاثي كي تضعف بذلك خصمها الغني القوي «ألمانيا» فإنجلترا بهذا العمل تصيد صيدين بسهم

واحد، تخرج إيطاليا من المحالفة الثلاثية لتضمها إلى الاتفاق الثلاثي، وتضعف تركيا حتى تجتث نفوذها من أرض إفريقيا. إلا أنها في الحالة الأخيرة لا تريد أن تظهر حتى لا توغر صدور المسلمين الخاضعين لها لأن ذلك يدعو إلى قلق شديد واضطراب عظيم في الأملاك الإنجليزية في وقت ترى نفسها في أشد الحاجة إلى معونتهم وولائهم ولاسيما في الإمبراطورية الهندية..

أما الدول الأخرى ونريد بها ألمانيا والنمسا وروسيا؛ فإنها لم تظهر أي رغبة في مساعدة تركيا، بل على النقيض من ذلك رأيناها ترفض التدخل بتاتا، بل قد نأخذ من جرائد إيطاليا ما يدلنا على أنهم يظاهرونها سرا بنفوذهم وتأييدهم، أما إذا نظرنا إلى عمل إيطاليا من حيث هو، وجدناه لا يكاد يخرج عن أنه عمل وحشي بربري أو أحط من ذلك، فإنما هو مجموعة خسة ودناءة وانحطاط، أعلنت إيطاليا الحرب في صورة مغايرة للقوانين والشرائع مغايرة للإنسانية والعدل وأعلنتها في صورة يعافها قطاع الطرق وقراصنة البحار. وادعت أنها ذاهبة إلى طرابلس لتمدين أهلها ولتنقذهم «كما تقول» من ريقة الذل والاستعباد، ولما أن وصلت إلى هذه البلاد أخذت تدلس على الأهلين وتموه على العقول بتوزيع المنشورات التي حشتها آيات قرآنية لا تنطبق على المأرب الذي انتهكت في سبيل الحصول عليه كل حرمة. ادعت أنها رسول السلام وملاك الرحمة والعدل، فأرتنا من آياتها ما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله الولدان.. ذبحت الشيوخ وقتلت النساء وصلبت الأطفال فما كنت

لا ترى إلا أجسادا منشورة وأوجها مشوهة وبطونا مبقورة وأذرعا مبتورة، إلى نحو ذلك مما لا يطابق الإنسانية والعدل.

ورغما عن تكالب الدول على تركيا ومساعدتها لإيطاليا تجد المجاهدين يدافعون عن بلادهم ويذودون عن وطنهم ويقاتلون لنصرة أمتهم ضد المغير عليهم وستكلل مقاومتهم بالنصر والظفر ما ثابروا على جهادهم وأمدهم العالم الإسلامي بالمئونة والزاد.

وعقدت إنجلترا وروسيا محالفة في سنة ١٩٠٧ من مقتضاها تقسيم البلاد الفارسية إلى ثلاث مناطق: منطقة للنفوذ الروسي، وأخرى للنفوذ الإنجليزي، وثالثة تبقى على الحيدة، وقد اتفقت إنجلترا وروسيا بهذه المعاهدة على صيانة كيان فارس واستقلالها في الظاهر وعلى تمزيقها في الباطن على النموذج الذي اتبع في تمزيق بولونيا بين الدول الأوروبية، وقد انتهزت الدولتان فرصة الارتباك الدولي الحاضر فأعلنتا حربا شعواء على فارس فبدأت روسيا في الصيف الماضي بأن أوعزت إلى الشاه المخلوع أن يغير على بلاده وأمدته بالأسلحة والجنود ومهدت له السبيل فوصل إلى البلاد الفارسية في شهر يوليو الماضي.

إلا أن الفارسيين الذين اشتروا الدستور بدمائهم قد وقفوا في وجه هذا المعتدي وأجلوه عن بلادهم؛ فأهاج ذلك العمل روسيا التي انتفخت أوداجها وورم أنفها وصممت على تنفيذ خطتها عنوة وقسرا، فلما حكمت المحاكم الفارسية بمصادرة أملاك أخي الشاه المخلوع لقيامه في وجه الحكومة وأرادت أن تستولي على هذه الأملاك وقف أحد موظفي

السفارة الروسية في وجه الجندرمة الفارسية واعترض هذا التنفيذ وادعى أنه أهين من الجندرمة الفارسية وسرعان ما أرسلت الحكومة الروسية إنذارا نهائيا للحكومة الفارسية طلبت فيه ترضية بسبب هذه الإهانة، وقد كان أساس هذه الترضية نيل امتيازات ذات بال رفض منحها مجلس النواب الفارسي بكل شمم وإباء فوقع هذا الرفض على الحكومة الروسية وقع الصاعقة فأرسلت جنودها إلى البلاد الفارسية وألحقت ذلك بإنذار ثان نهائي طلبت فيه من حكومة فارس:

١- طرد المستر شوستر المستشار المالي الفارسي.

٢- أن يعين المستشار المالي بعد أخذ رأي حكومتي روسيا وإنجلترا كل منهما فيما يخصه.

٣- دفع مصاريف الجنود.

4- تنفيذ ما جاء في الإنذار الأول.

فرفض المجلس هذه المطالب مرة أخرى كما رفض ما جاء في الإنذار الثاني، إلا أن الوزارة قبلت هذه المطالب بعد إلحاح كبير من إنجلترا أما مسئولية إنجلترا في هذه الحوادث فعظيمة لأنها شريكة روسيا في فعلتها، ولقد صرح السير جراي بأنه لا يعارض روسيا في أعمالها ولا يساعد فارس على روسيا، ولكن إذا كانت الحكومة الفارسية قد رفضت هذه المطالب أولا ثم قبلتها مكرهة فإن الشعب الفارسي لم يقر الحكومة على ما قررته لأن ذلك تقويض لدعائم استقلال فارس وضياع لحريتها ولقد رأينا هذا الشعب المجيد يدافع عن بلاده بدمائه الغالية ورأى المجتهدين من العلماء الفارسيين يحضون الأهالي على مقاطعة الروس ومقاومتهم بإصدارهم الفتاوى الشرعية، فشعب هذه أعماله وميوله،

شعب هذه أخلاقه وسجاياه نرجو ونأمل أن يكون لروسيا شجا دائما وغصة قاتلة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقبلون.

هذا ما كان من شأن البلاد الإسلامية المستقلة، وهناك بلاد إسلامية أخرى مستقلة نوعا ما أو رازحة تحت نير الأجنبى قد نالها من المصائب في هذا العام ما تكل منه الجبال الشامخة، وأصابها من البلايا ما تقشعر منه أبدان الإنسانية، ونزل بها من الولايات ما تبرأ منه المدنية.. كل ذلك من جراء المطامع الأشعبية للأمم الأجنبية التي لا تهدأ لها بل ولا يرتاح لها فؤاد إلا إذا عملت ليل نهار على العبث بالإسلام والمسلمين.

إن هذه الجائحات التي تجتاح المسلمين في كل يوم يرجع السبب فيها إلى المسلمين أنفسهم الذين فرطوا في حقوقهم فأضاعوا تراث آبائهم وأجدادهم هم الذين تحاسدوا وتخاذلوا فتفرقوا، وفشلت ريحهم، وتمكن الأجنبي من تملك ناصيتهم والاستيلاء على بلادهم، وهيهات أن تقوم لهم قائمة أو يستقيم بهم معوج، اللهم إلا إذا اتحدوا قلبا وقالبا، وعملوا يدا واحدة في انتشال أنفسهم من هذه الوهدة السحيقة، وأصبحوا أمام المطامع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

فعلى المسلمين اليوم واجب من أقدس الواجبات وفرض من أعظم الفروض ألا وهو الاتحاد والتضافر والتعاون على صيانة أنفسهم وبلادهم من طمع الطامعين وغدر الغادرين «إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم».

الشيخ المبعد

هذا الدور هو آخر الأدوار في التحدث عن الشيخ، وكأني بلسان حاله يقول ما قاله الشاعر:

فما أنت يا مصر دار الأديب وما أنت بالبلد الطيب

إن مصر أطيب البلاد في نظر الشيخ، ولذلك وهبها كل حياته وكل عيشه الرتيبة، وكل راحته وكل طمأنينته، واستعذب في سبيلها كل إعنات وظلم، ولكن غير الطيب فيها كان يترجم لسان حاله هو حكوماتها التي كانت تعادي الأحرار، وتخلي منهم الديار.

كانت مصر في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، مثابة للأحرار السوريين، الذين فروا من بلادهم إليها لاستبداد الحكومة التركية، مثل رفيق العظم، وعبد الرحمن الكواكبي، فاستقبلتهم مصر استقبال المواطنين، وأكرمت مثواهم، وأنزلتهم منزلة خير أبنائها، ولكن الأمر قد تغيَّر وضعه، وصارت مصر بعد سياسة «الوفاق» مع الإنجليز عدوة الأحرار، فقد أبعد محمد فريد، وأبعد عبد العزيز جاويش، وكتمت أنفاس الحزب الوطني، حتى أن أمين الرافعي عطَّل جريدة الحزب بلا معطل سنة ١٩١٤، لأنه وجد البلاد منحدرة إلى الهاوية، سواء بسبب إعلان الحماية عليها، أو بسبب الرقابة الخانقة المفروضة على الصحف، وبالجملة فقد عصفت الاستبدادية بكل حرية.

في هذا الجو الذي لا يطاق احتماله، تحرجت أحوال الشيخ أينما تحرج، وضيَّقت الحكومة عليه المسالك، وسدت في وجهه كل باب، ثم صارحته بأنها لا ترغب في بقائه في مصر وله أن يختار بلدًا غيرها، وإلا تصرفت هي في نفيه وإبعاده عن البلاد، فلم ير الشيخ إلا أن يريح ويستريح، لم ير إلا أن يريح حكومة مستبدة ضاقت به ذرعا، وأن يريح هو نفسه من العنت الذي يلاحقه منها في كل وقت ومكان.

فارق الشيخ مصر هو وأولاده إلى تركيا التي اختارها بديلا عن وطنه، وليس لديَّ مراجع أعرف منها شيئا عنه بعد رحيله إلا التلخيص الذي أسلفته عن ولده «ناصر» مقدما به كتاب والده «الإسلام دين الفطرة» طبعة دار الهلال، ومن هذا المرجع وحده يمكنني أن أرافق الشيخ في بعض خطواته في غربته.

أُبعد الشيخ سنة ١٩١٢، ولم يكد يصل إلى تركيا حتى بدأ أعماله فطورا يتزعم جماعة جمع التبرعات للجيش التركي في حربه مع الطليان في طرابلس الغرب، ويرسل له الأسلحة والذخيرة، وطورًا يسافر إلى إنجلترا، يتفق مع أحد أغنياء الهنود على إنشاء أسطول إسلامي، وطورًا يتهم وهو في إنجلترا بالتحريض على الاعتداء على الخديوي عباس الذي وقع له في تركيا، فيفر منها إلى باريس مخافة القبض عليه.

ومن أطواره العجيبة أنه اشترك اشتراكا فعليا في حملة الجيش التركي لتخليص مصر من الاحتلال الإنجليزي سنة ١٩١٥، هو ورجال

الحزب الوطني الذين فروا من استبداد الحكومة المصرية بعد إعلان الحرب سنة ١٩١٤.

ومن أطواره وهو بألمانيا أنه سعى بواسطة من تعرف بهم من عظماء الألمان، في أن يعترف مجلس «الريخستاغ» بأن مصر يجب أن تكون مستقلة، وأن ينتهي احتلالها، كما سعى هذا السعي نفسه وهو بتركيا، فقرر مجلس «المبعوثان» حق مصر في استقلالها.

هذه خلاصة عن أطواره السياسية في غربته بالإيجاز.

***

أما أطواره الصحفية؛ فكثيرة، فقد أصدر المجلات المختلفة اللغات، في تركيا، وفي ألمانيا، وفي سويسرا، بعضها ديني كمجلته «الهداية» في مصر، وبعضها سياسي للدفاع عن مصر وقضيتها، وقد ذكر لنا ولده «ناصر» أسماء هذه المجلات في سطوره التي لخص فيها حياة والده.

***

أما طوره العلمي فإنه أنشأ وأصلح فيه الجامعات العلمية، فقد أنشأ الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، ووضع لها الأسس والمناهج، وأصلح كلية صلاح الدين بالقدس، وعهدت إليه إدارتها.

كان آخر أطوار حياته العلمية أن اختاره الغازي مصطفى كمال سنة ١٩٢٢ رئيسا للجنة الشئون التأليفية الإسلامية بأنقرة، وهو اختيار يدل على فائق التقدير للشيخ من رجل كمصطفى كمال الذي أبعد

علماء الدين، وعدهم أعداء النهضة التركية، وسبب ما حل ببلاده من الكوارث فإذا عين هذا القائد الشيخ جاويش في منصب ديني كالذي عينه فيه بعدما وقع لرجال الدين الأتراك منه، فإن ذلك لينطق بأقوى لسان على أن هذا الغازي يقدر الشيخ حق قدره، ويعده صالحا للتأليف الديني.

***

أما مقام الشيخ في غربته بصفة عامة فذلك ما نعرفه من بعض فقرات لم أذكرها فيما سبق لي اختياره من خطابه الذي أرسله إلى الحكومة المصرية، يخبرها فيه بعودته سرًا إلى مصر في ١٣ من ديسمبر سنة ١٩٢٣، وقد أثبت أكثر هذا الخطاب في باب «الشيخ الأديب».

أما الفقرة التي تدل على مقام الشيخ في غربته فهي:

«وإذا كنت أبيت أن أصافح الخديوي السابق أو ألاقيه في ذلك العهد الرهيب «يريد عهده في مصر» فهل يعقل أن أترامى على أعتابه أو ألتمس لقاءه خلال سنوات الحرب، في بلاد كنت فيها أنفذ منه أمرًا، وأرفع ذكرًا».

«رحم الله الشيخ عبدالعزيز جاويش».

خاتمة ومقارنة

إن الذي يترجم للشيخ عبد العزيز جاويش، هو بلا ريب لا ينسى أن يحيي الأدباء الثائرين المصلحين أمثاله، على تفاوت بينهم في هذه الرابطة التي تنتظمهم جميعا، وعلى تخالف القوم في تقديرهم، كما انتظمتهم البيئة التي أخرجتهم، وهي بيئة المشايخ. هؤلاء السادة هم:

جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وعبد الله النديم، وعبد الرحمن الكواكبى، والشيخ عبد العزيز جاويش.

هذه التحية هي أشبه بمقارنة بينهم فيما تخصصوا له في حياتهم، وهو الثورات والإصلاح. اشترك هؤلاء السادة في أن حياتهم كانت حياة متاعب وعناء، واضطهاد، ونفي وإبعاد، وسجن، فقد سجن جمال الدين حين قبض عليه في طريقه إلى النفي، وسجن محمد عبده في أثناء محاكمته بعد الثورة العرابية ثم نفي، وسجن عبد الله النديم نفسه في اختفائه الذي طال عليه أمده، وسجن عبد الرحمن الكواكبي في بلده «حلب» لما قدم للمحاكمة بتهمة لفقت عليه ثم بريء منها، وسجن عبد العزيز جاويش كما عرفنا من ترجمته.

***

إنهم جميعا ثائرون في حياتهم على المظالم وفساد الحكم، واستعباد الشعوب، ولكن هذه الثورة تختلف باختلاف طباعهم وغرائزهم، وظروفهم التي وجهتهم إلى الثورات؛ فلقد كان جمال الدين الأفغاني ثائرا من نوع عجيب، وأتحدى وأنا واثق من أن هذا التحدي سليم، أتحدى من يدلني على موقف لهذا الرجل كان فيه هاديء الطبع غير ثائر، إن الثورة كامنة في نفسه الكبيرة إلى أن يمسها ماس من شئون الحياة التي خصص لها حياته كلها، هناك تفور وتغلي، قوية عارمة لا هوادة فيها ولا إبطاء. هو في بلاده الأفغان في ابتداء حياته ثائر ومحارب ومجاهد، وذو رأي محترم، هو في الهند ثائر يلقي على رجالاتها من ثورته ما غذى به النفوس، وحرك القلوب.

هو على شاه إيران ثائر، وليس بالقليل أن يقول السلطان عبد الحميد في أثناء حديث جرى بينهما: "إن الشاه يخافك حقا"، فيجيبه بأنه قد عفي عنه لأجل خاطر السلطان!!

هو في مصر ثائر، وبحسبه من ثورته فيها أن المؤرخين له أجمعوا على أنه هو الذي بذر بذور الثورة العرابية.

هو في روسيا ثائر، يخاطب كبيرا من علماء الإسلام هناك، الشيخ رشيد التتاري بقوله: "يا ولد، ستشهد زوال الإمبراطورية البريطانية، وستصلي صلاة الجنازة على القيصرية الروسية".

ثم هو في الآستانة ثائر، يشتبك مع شيخ الإسلام هناك في معارك علمية، ويطلق فيه لسانه الغضب، ويدخل مع أبي الهدى الصيادي مستشار السلطان في جولات، ودفع اتهامات لفقها عليه هذا المستشار، ومازال بها حتى فندها كل التفنيد، وخرج من المعركة ظافرا منصورا.

إذن هو ثائر باستعداده الفطرى، وقد اكتملت له أدوات الثورة كلها، من نفس كبيرة لم تخضع لعظيم، ومن لسان كالسيف القاطع يشق به أغلاف القلوب، ومن عقل راجح سيطر به على كل شأن فأبدى فيه الرأى السليم، وعلى كل عقدة فحلها بسرعة لا تخطر على بال، حتى أنه لما لم تعجبه طريقة الماسون في الابتعاد عن السياسة، ثار عليها ثورته، وسرعان ما ألف محفلا جديدا كان هو المتصرف فيه.

***

لكي نعرف اتجاه الشيخ الإمام محمد عبده في ثورته، أقص عليك فحوى حيث جرى بينه وبين السيد جمال الدين الأفغاني لما ذهبا إلى باريس ليجاهدا كعادتهما. جلسا يتشاوران، ماذا يصنعان، فكان رأي الإمام أنهما يذهبان إلى مكان بعيد غير خاضع لسلطان دولة تعرقل عملهما وينشئان مدرسة للزعماء، يختاران لها نجباء التلاميذ من الأقطار الإسلامية، ويربيانهم على مناهج علمية قوية، ويعدانهم للزعامة والإصلاح، فلا تمضي عشر سنين حتى يكون عندهما عديد من الذين يتبعونهما في ترك أوطانهم، والسير في الأرض لنشر الإصلاح المطلوب، فينتشر أحسن انتشار.

لم يرض السيد بهذا الرأي، وكان جوابه على اقتراح الشيخ إنما أنت مثبط، وقد تغلب رأي السيد على رأي الشيخ، وأنشأت جريدة «العروة الوثقى».

من فحوى هذا الحوار تعرف أن الإمام كان يريد أن يأتي الأمر من بابه، وأن يدير طائفة صالحة تقوم خير قيام بما تقوم به من كل أنواع الإصلاح، لأن الشرق كله – ومنه مصر– خال من هذا النوع من مريديه الإصلاح عن علم وبينة.

إذن كانت ثورة الإمام في السياسة والاجتماع والدين وإصلاح اللغة العربية، ثورة هادئة لا يركب فيها الطائرة مثل ما كان يركب جمال الدين، ولا تكيف ثورته السرعة الخارقة للعادة التي كانت تكيف ثورة جمال الدين.

لمحمد عبده مواقف ثائرة ثورة أستاذه السيد، مثل قوله:

«دعوناها «الأمة» إلى الاعتقاد بأن الحاكم – وإن وجبت طاعته – هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن الخطأ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل. جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه، والظلم قابض على صولجانه، ويد الظالم من حديد، والناس عبيد له أى عبيد».

هذا الثائر هو الذي كاد يدركه اليأس من أن يرى سعيه يتحقق في أيامه، ويرى نتائجه رأي العين، ولذلك قال في موضع آخر: «أما أمر

الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره، وليد الله بعد ذلك تدبره، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تجنيها آلامه من غراس تغرسه، وتقوم على تنميته السنون الطوال، فهذا الغراس هو الذي يجب أن يعنى به الآن، والله المستعان».

فالشيخ قد ثار في مواقف كثيرة كما ثار السيد، ولكنه رجع إلى قاعدته التي اقتنع بصحتها كل الاقتناع من أن الإصلاح غراس يغرس تقوم على تنميته السنوات الطوال ولذلك تخصص في آخريات أيامه للغرس الصالح، فأفاض على الناس من دروسه وعلمه ما اعتقد أنه هو ذلك الغراس الطيب الذي سينمو على مر الأيام، فيكثر الإصلاح والمصلحون

***

كان النديم كاتب الثورة العرابية وخطيبها، قواها بقلمه ولسانه لما كانت ثورة نفسية، وقواها كذلك لما كانت ثورة فعلية، قواها بجريدته ولسانه في ميادين القتال، ورافق الجنود بين قصف المدافع ولمعان السيوف، وكان قبل ذلك – وبعد ذلك أيضا – ثائرًا على العادات الاجتماعية يهز من كيانها، وينقض من بنائها، فهو الثائر طوال حياته، إلى أن أدركته الوفاة. كان ملتزما في الثورة طريقة تقوية العزائم ولو بخياله الخصيب، وقد حدثنا عنه الأستاذ فتحي زغلول لما كان طالبا بمدرسة رأس التين بالإسكندرية، فقد روى أنه سمع عبد الله نديم وهو يخطب الجماهير بما فحواه أنه إذا أطلقت مدافعنا على جزيرة «قبرص» فإنها

تصيبها، وإذا أطلقت مدافع الأتراك إنها تصيبها كذلك فالأسطول الإنجليزى تحت رحمة مدافعنا ومدافع الأتراك إذا حاول دخول قلاع الإسكندرية، وقد حدثنا بذلك السيد رشيد رضا في الجزء الأول من كتابه «تاريخ الأستاذ الإمام».

***

الكواكبي لم يكن كالأفغاني، ثائرًا ثورة باطنة وظاهرة، وإنما كانت ثورته باطنة تنتج القول الملتهب، ولكن في سكون، وتصف لك القواصف النازلة على رءوس الشرق، ولكن في هدوء وهو في ذلك كخرير الماء يعمل في بطء حتى يفتت الصخر، وإن الرجل الذي يقول في ابتداء كتابه «طبائع الاستبداد» «هذه صيحة في واد أن ذهبت اليوم مع الريح فستذهب غدا بالأوتاد!» هو في ذلك يشبه الشيخ محمد عبده كل الشبه في العمل المتصل بهدوء وتأن، يقول القول ويترك في النفوس أثره ما دون عجلة أو إسراع.

وخلاص القول في هذا الرجل أنه طبيب حاذق، يفحص المرض في هدوء، ويصف الدواء في أناة، وقد وضح لنا ذلك في كتابيه الخالدين، اللذين يجب أن يقرأهما شباب هذا الجيل، لينتفعوا بما دونه أسلافهم وقضوا فيه أعمارهم.

عبدالعزيز جاويش: كان هذا الرجل ثائرًا في كل مراحل حياته، ثائرًا على طرق التعليم وهو لا يزال مفتشًا بوزارة المعارف، فوضع كتابه في التربية والتعليم «غنية المؤدبين» الذي هو الكتاب الأول في نوعه، وإذا

سميت وضع هذا الكتاب ثورة فلأنه أصلح به فاسدا، ووضع للتربية منهاجا جديدا، وقد سبقني إلى ذلك الدكتور أحمد أمين لما وصف كتاب على مبارك في تعليم الهجاء ورسم الحروف بأنه ثورة.

انتقل الشيخ من الوظائف إلى العمل الحر الكتابي والخطابي فكان ثائرا كل الثورة وربما يعرف أن مقالا سيكتبه يدخله السجن ولكنه يكتبه، وإن خطبة سيضطهد بسببها ولكنه يخطبها، ناري القلم، جريء القلب، سليم الطوية إلى ما تتحمله كلمة «السلامة» من معان.

كتب وخطب، وابتعد عن البلاد، وذاق الأمرين في اغترابه ولكن ذلك لم يخفف من ثورته شيئا، وهذا مقاله الذي استقبل به ومعه ووطنه – وقد أسلفته– خير شاهد على أن ثورة الشيخ لم تفارقه حتى الممات.

حدثني مدرسي – رحمه الله – أن الشيخ ذهب إلى مدرسته وهو مراقب التعليم الأولي بوزارة المعارف، ويظهر أن الشيخ قد لاحظ بعض التقصير من هذا المدرس في أنه لم يأخذ بإرشاداته التي أرسلها إلى المدارس، فجمع المدرسين وقت فسحة التلاميذ، وصاح فيهم قائلا: إنني لا أعاقب أحدا منكم ولكنني أنصحكم باتباع إرشاداتي بكل دقة، ولقد صحت في وزارة المعارف منذ أيام أمام وكيل الوزارة بأن مشروعي في التعليم الأولي إذا لم تنفذه الوزارة كما وضعته فإنني أنفذه ولو بالسيف. ولا ريب أن استعمال كلمة السيف في مثل هذه الأمور ليدل على شجاعة قلب، وصفاء طوية، إنه يشبه إلى حد كبير جمال الدين الأفغاني في حدته الثورية وإرشاداته الإصلاحية.

مراجع البحث

1. غنية المؤدبين
2. مرشد المترجم
3. الإسلام دين الفطرة
4. مجلة الهداية للشيخ عبد العزيز جاويش
5. محمد فريد، للأستاذ عبد الرحمن الرافعي
6. تاريخ الأستاذ الإمام، للسيد رشيد رضا.
7. وطنيتي، للأستاذ علي الغاياتي «طبعة سنة ١٩٤٧».
8. حاضر العالم الإسلامي «تعليقات الأمير شكيب أرسلان على الكتاب».
9. تكوين الصحف المصرية، قسطا كى إلياس عطاره.
10. أعمالي بعد أقوالي، لأحمد شفيق «باشا».
11. مجموعة خطب نادي دار العلوم سنة ١٣٢٦هجرية.
12. على هامش السياسة للدكتور حافظ عفيفي.

محتويات الكتاب